بحوث ومقالات لغوية

بحوث ومقالات لغوية

الدكتور حسين نصار

أستاذ الأدب العربي

عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة سابقًا

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٣١ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٣٦ ش بورسعيد - الظاهر ت: ٥٩٢٣٦٢٠ - فاكس: ٥٩٢٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

رقم الايداع	٢٠٠٣/١٦٢٤٤
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 341 - 118 - 4

كلمة

أصدرت لى " مكتبة الثقافة الدينية" منذ مدة ما أنتجته من بحوث فى (الشعر العربى) و (الأدب المصرى) ونشرته فى مجلات علمية مختلفة، فى العالم العربى.

واليوم أصدر فى الكتاب الذى بين يدى القارئ ما لم أنشره فى كتاب قبلا من البحوث والمقالات اللغوية، تكملة للميادين العلمية التى عنيت بها، وكتبت فيها. عسى أن يجد فيها القارئ طَلِبه له، أو معلومة تفيده.

والشكر واجب للحاج أحمد انسى عبد المجيد صاحب دار النشر، وفقه الله فيما يقدم من أجل الثقافة العربية والإسلامية.

حسين نصار

التنبه إلى تأثير البيئة(*)

أولا المجال اللغوى

١ ـ المجتمع العربى

أقدم خبر عثرت عليه، وينبىء عن إحساس بتغاير البيئات، يرجع إلى ما قبل الإسلام وينتمى إلى المجال اللغوى. فقد حكم كتاب السيرة النبوية [1] أن الأرستقراطية القرشية كانت تبعث بأطفالها مع نساء القبائل النجدية لينشئوا فيها، وأن جد محمد بن عبد الله ـ نبى الإسلام فيما بعد ـ حرص على هذا العُرف، على الرغم من وفاة والد الطفل، وعدم غناه. حقا كانت هذه الأرستقراطية تبغى النشأة الصحية السليمة لأطفالها. ولكن بعض الدلائل التى لدينا تدل على أنها كانت ترى أن اللغة العربية فى نجد أسلم وأفصح من عربية مكة. نعرف ذلك من قول النبى (ﷺ): "أنا أفصح العرب، بيد أنى من قريش، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر" [2] فقد رد فصاحته إلى سببين، أحدهما نشأته الأولى فى بنى سعد من أهل نجد. ونتأكد من هذا عندما نعرف أن هذا العرف بقى ملتزما فى الإسلام، فقد حرصت عليه أرستقراطية الدولة الأموية، تلك الدولة التى عرفت بالتمسك بالأعراف العربية القديمة. فتمسك خلفاؤها ـ

(*) كتاب الأدب العربى : تعبيره عن الوحدة والتنوع ـــ جامعة الأمم المتحدة ـــ مركز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت مارس (آذار) ١٩٨٧.

(١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، وإبراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى، ط ٢، تراث الإسلام، ا، ٤ ج (القاهرة: مكتبة البابى الحلبى، ١٩٥٥)، ج ١، ص ١٦٠.

(٢) عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد السيوطى، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، ط ٢، ٢ ج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، {د. ت})، ج ١، ص ١٠٤، وحسين نصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، ٢ ج (القاهرة: مكتبة مصر، {د. ت})، ج ١، ص ١٦.

على الأقل - ببقاء الاتصال ببدو نجد، وتنشئة أطفالهم عندهم. بل تزوج الخليفة الأموى الأول معاوية بن أبى سفيان (٦٦٠ - ٦٨٠) من بدوية حافظت على زيارة البادية، والتردد إليها، والإقامة فيها مددًا، إذ كانت تفضلها على قصور الخلافة فى دمشق، تلك هى ميسون بنت بحدل، التى أنجبت له ابنه ذا المزاج البدوى، وخليفته فى الحكم، يزيد الأول (٦٨٠ - ٦٨٣). وأخل الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) بذلك العرف فلم يرسل ابنه الوليد إلى نجد لفرط حبه إياه وخوفه عليه، فانحرفت لغته عن النموذج النجدى فندم عبد الملك وقال: "أضرَّ بنا حبنا للوليد، فلم نرسله للبادية" [1].

٢ - المجتمع الإسلامى

ولم أعثر على أخبار من العصر العباسي تؤيد أن الأرستقراطية الجديدة حرصت على هذا العرف. والحق أن هذه الأرستقراطية كانت تختلف عن الأرستقراطية فى الدولة السابقة فى العِرْق والفكر والطموح والسلوك، فلا غرابة أن تهجر العرف القديم.

وعلى الرغم من ذلك، لم يندثر الأساس الفكرى لهذا العرف، وبقى له تأثير خاص فى بعض فئات المجتمع الجديد الذى اختلطت فيه العناصر العربية والعناصر غير العربية التى ضمتها الخلافة - وخصوصا العناصر الفارسية - اختلاطا وثيقا. فعندما عزفت الأرستقراطية عن إرسال أبنائها إلى الصحراء، سعت الفئات العربية المحافظة فى السنوات الأولى من حياة المجتمع العباسى، وفئة علماء اللغة - تلك الفئة التى ظهرت منذ أواخر العصر الأموى - كذلك الفئات التى أرادت التشبه بالعرب، سعت كل هذه الفئات إلى عكس الظاهرة. فرحبت بالبدو القادمين من نجد، وشجعتهم على القدوم وقدمت لهم ما استطاعت لتهون عليهم البقاء المؤقت (كيلا يطول البقاء فتنحرف لغتهم) فى

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص ١٩٢، ونصار، المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٧.

المدن، وعدّتهم زينة المجالس، واستقبلتهم فى قصورها، واستمعت إليهم فى إصغاء وإعجاب بالغين، ودونت أقوالهم [1].

ويتجلى أثر ثانٍ فى فئة علماء اللغة فقد حافظوا على التصور القديم الذى يجعل من لغة نجد مثالا ترنو إليه الأبصار، ويسعى الأفراد إلى معرفته واحتذائه. فدفعهم ذلك إلى الرحلة إلى نجد لتحقيق آمالهم، وأوصوا كل من يريد علم اللغة بذلك [2]. ولسنا نعرف يقينا أول وآخر من قام بهذه الرحلة. والسبب فى ذلك أن العلماء الأوائل كانوا إما عربًا خلصا مثل أبى الأسود الدؤلى (٦٠٥ - ٦٨٨) ويحيى بن يعمر العدوانى (٧٤٦)، وإما أعاجم عاشوا فى كنف قبائل فصيحة مثل عبد الله بن أبى إسحاق (٦٥٩ - ٧٤٣) الذى نزل آل الحضرمى، وعيسى بن عمر (٧٦٦) الذى نزل فى ثقيف. ولكننا نعرف أن هذه الرحلة صارت عرفًا موضع احترام وإعزاز منذ أبى عمرو بن العلاء (٦٩٠ - ٧٧١). واستمرت إلى القرن العاشر. قال الجوهرى (أبو نصر إسماعيل) (١٠٠٣) فى مقدمة معجمه المعروف الصحاح: "فإنى قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة.. بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتى بها العُرب العاربة فى ديارهم بالبادية" [3].

بل وصل الأمر بالأزهرى (أبى منصور محمد بن أحمد) (٨٩٥ - ٩٨١) إلى أن يستثمر الأسر الذى وقع فيه، فى أثناء رحلته إلى الحج، واضطراره إلى الإقامة عند آسريه، عندما وجدهم من العرب الفصحاء. قال فى مقدمة معجمه تهذيب اللغة: "دعانى إلى ما جمعت فيه من لغتهم وألفاظهم والاستقصاء فيما حصلت منها، والاستشهاد بشواهد أشعارها.. تقييد نكت حفظتها ووعيتها عن

---

(١) السيوطى، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، ج ٢، ص ٣٠٧، ٤٠١ و٤١٠، ونجيب البهبيتى، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى، ط ٣ (١٩٦٧) ص ٤٤٥ ــ ٤٤٨.

(٢) السيوطى، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٥، وعلى بن يوسف القفطى، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٣) الجوهرى، الصحاح، ص ٣٣.

أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرايهم سنيات، إذ كان ما أثبته أئمة اللغة فى كتبهم لا ينوب مناب المشاهدة ولا يقوم مقام الدربة والعادة" [1].

ولم يقف علماء اللغة عند حدود نظرة العرب القديمة بل تخطوها إلى ما وراءها. واعتدل بعضهم فقنع بالحكم على بعض الشعراء الذين قضوا حياتهم خارج حدود نجد بالبعد عن اللغة النموذجية أو عدم أخذ اللغويين عنهم كما أخذوا عن لغة غيرهم. قال الأصمعى (أبو سعيد عبد الملك) (٧٤٠ - ٨٣١): "العرب لا تروى شعر أبى دواد وعدى بن زيد: وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية" [2]. وقال أبو محمد عبد الله بن قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩) : "أتى (عدى بن زيد) بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب... وعلماؤنا لا يرون شعره حجة على الكتاب" [3]. وعلى الرغم من شيوع أمثال هذه الأقوال بين العلماء والنقاد، نقبلها فى احتراس وحذر، لأن أصحاب المعاجم - وعلى رأسهم الخليل بن أحمد [4] - رووا عن الشاعرين وغيرهما من المتهمين بالضعف اللغوى.

وأسرف بعض علماء اللغة فميز بين اللغات - على أساس بيئتها - وحكم على بعضها بالفصاحة [5] ، وبعضها بالضعف وإنكار اللغويين لها وتركها [6] ، وبعضها بالرداءة والذم [7] . ووضح الفارابى (أبو إبراهيم إسحاق) (نحو ٩٦١) المقياس البدوى، والقبائل المعترف بها وغير المعترف، توضيحًا كافيًا فى قوله: "الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى، من

(١) محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، ج ١، ص ٦، ونصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، ج ١، ص ٣٠٥.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى، فى الموشح ٧٣ الشعر والشعراء (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، ص ٢٣٠.

(٣) نصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، ج ١، ص ٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٤٠.

(٥) السيوطى، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، النوع التاسع، ج ١، ص ١٨٣ — ١٨٤.

(٦) المصدر نفسه، النوع العاشر، ج ١ ص ٢١٤ — ٢٢٠.

(٧) المصدر نفسه، النوع الحادى عشر، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٦.

بين قبائل العرب، هم: قيس وتميم وأسد... ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام - لمجاورتهم أهل مصر والقبط - ولا من قضاعة وغسان وإياد - لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية - ولا من تغلب والنمر - فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر - لمجاورتهم للنبط والفرس - ولا من عبد القيس وأزد عمان - لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس - ولا من أهل اليمن - لمخالطتهم للهند والحبشة - ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم - ولا من حاضرة الحجاز - لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم"[1]. فإذا أغضينا عن التطرف الذى يشوب هذا النص، ويعيب حكمه على بعض القبائل، استنبطنا منه مبدأ قال به علماء اللغة والنحو وتمسكوا به. أعنى ذلك المبدأ الذى ينظر إلى لهجات القبائل العربية نظرة معيارية، تميز بين لهجات سليمة وأخرى رديئة. واللهجات السليمة هى لهجات القبائل التى عاشت فى البادية منعزلة عن المؤثرات الخارجية. واللهجات الرديئة هى لهجات القبائل التى استوطنت بقاعًا بعيدة عن البادية، أو بقاعًا من البادية أو قريبة منها، غير أنها اتصلت بشعوب غير عربية كان لها أثرها فى لهجتها. وما زال هذا المبدأ ملتزمًا فى علم النحو العربى إلى اليوم، وإن كان المحدثون من علماء اللغة تحللوا من قبضته المحكمة، وحصلوا على شىء من التحرر منه.

---

(١) المصدر نفسه، ج١ ص ٢١١ و ٢١٢، والفارابى، الاقتراح (حيدر آباد الدكن، ١٣٥٩هـ).

ثانيا: المجال الأدبى

إذا تركنا المجال اللغوى إلى الأدبى، وجدنا ثلاث فئات تتقاسمه وتفطن إلى أثر البيئة، ومنذ عهد بعيد، وإن كان لا يزاحم المجال اللغوى فى ذلك. ومن أقدم ما عثرت عليه خبر يبين أن الذوق يختلف من بيئة إلى أخرى. جاء فى الحديث النبوى : "من بدا جفا" [1] فرق الحديث بين أذواق أبناء البادية وأبناء الحاضرة، ووصف الأولين بالغلظة والخشونة. وعثرت على خبر آخر يتحدث عن الذوق أيضًا. روى أبو الفرج الأصفهانى ـ صاحب أكبر موسوعة فنية قديمة[2] ــ عن عبيد الله بن عمر العمرى (٧٦٤) ــ قال: خرجت حاجًا فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام أرفثت (أفحشت) فيه. فأدنيت ناقتى منها، ثم قلت لها: يا أمة الله، ألست حاجة؟ أما تخافين الله! فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنًا. ثم قالت: تأمل يا عم، فإننى ممن عناه العرجى بقوله:

أماطت كساء الخز عن حُر وجهها وأدنت على الخدين بُردًا مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حِسْبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقلت لها: فإنى أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار... وبلغ ذلك سعيد ابن المسيب (٦٣٤ ـ ٧١٣) أو سلمة بن دينار (٧٥٧) فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها: اعزبى، قبحك الله، ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز".

والفئات الثلاث التى نجدها هى ما يلى:

---

(١) أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى، الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق وشرح محمد ابو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى، ص ٣ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١)، ص ١٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى، ٢٤ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧ ــ ١٩٧٤)، ج ١، ص ٤٠٣.

١ ـ فئة النقاد

أقدم ما عثرت عليه من الأخبار النقدية التى تربط بين الشعراء وبيئاتهم يرجع إلى العصر الأموى. فقد روى [١] أن كثيرًا قدم على عبد الملك بن مروان فأنشده، والأخطل (٦٤٠ ـ ٧٠٨) عنده. فسأله عبد الملك: "كيف ترى يا أبا مالك؟ فقال: أرى شعرا حجازيا مقرورًا، لو ضغطه برد الشام لاضمحل". ويكشف هذا الخبر أن الأخطل يفرق بين شعراء الحجاز وشعراء العراق والشام، ويفضل الأخيرين على الأولين، وإن كان التفضيل ساذجا لا يعتمد على أساس واضح.

ثم يتضح التأثير عند محمد بن سلام الجمحى (٧٦٧ ـ ٨٤٦) الذى يعطينا ثلاثة أخبار: أولهما صياغة لما كان يدور بين اللغويين عن عدى بن زيد قال: "عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه" [٢]. فإذا كان اللغويون نظروا إلى سلامة لغة عدى، فإن ابن سلام نظر إلى سهولة ألفاظه وتراكيبه. وإذا كان اللغويون عللوا حكمهم بما حدث فى الحيرة من اختلاط بين العرب وغيرهم، فإن ابن سلام علل حكمه بطبيعة الحيرة الريفية التى تختلف عن طبيعة البادية.

ولعل هذا الحكم هو الذى أعان ابن سلام فى حكمه التالى، الذى لم يقف فيه عند شاعر واحد، بل اتسع ففرق بين سكان الريف وسكان الصحراء عامة، فجعل الأمر قاعدة عامة، قال: "أهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو" [٣].

ونظر ابن سلام فى الخبر الثالث إلى أثر البيئة (وما يجرى فيها) فى كثرة الشعر وقلته وفى جودته أيضا، وفرق بين البيئات المختلفة اعتمادا على ذلك،

---

(١) محمد بن سلام الجمحى، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ذخائر العرب، ٧ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢)، ٤٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٣) محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبى والبلاغة، ص ١٠٨ و ١١٠.

قال: "إنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويُغار عليهم، والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا، وذلك الذى قلل شعر عمان" [1].

وقد التقط ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله) (٨٢٨ - ٨٨٩) تفرقة ابن سلام بين البادية والريف ووافق عليها وأضاف إليها تفاصيل تكشف عن بعض وجوه التفرقة، فقال: "نازلة الوبر (الصحراء) في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة الحضر، لانتجاعهم الكلأ، وانتقالهم من ماء إلى ماء، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان". ورد إلى هذه الحياة البدوية المتنقلة ما اعتاده الشاعر القديم من بدء قصائدهم "بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها" [2].

والتفت ابن طباطبا [3] (٩٣٤) إلى استلهام الشاعر العربي القديم لبيئته ووصفه ما فيها من أشياء، واتخاذها مادة ألف منها صوره الفنية، فقال: "اعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحِكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها، وهم أهل وبر، صحونهم البوادى، وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها، وفي كل واحدة منها في فصول الزمان على اختلافها، من شتاء وربيع وصيف وخريف، من ماء وهواء ونار وجبل، ونبات وحيوان، وجماد، وناطق وصامت، ومتحرك وساكن، وكل متولد من وقت نشوئه وفي حال نموه إلى حال انتهائه. فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها..". وقد وصل ابن طباطبا إلى

---

(١) الجمحي، المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٢) أبو علي الحسن بن علي بن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده (بيروت: دار الجيل، ١٩٧١)، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق وتعليق طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦)، ص ١٠.

القمة، فى إبانة أثر البيئة فى المضمون الشعرى، حيث أعلن أن "العرب أودعت أشعارها... ما ... أدركه عيانها، ومرت به تجاربها" بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فنفى أن يكونوا أتوا بشىء من خارج بيئتهم: "فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها".

والتفت على بن عبد العزيز الجرجانى [1] (٩٠٣ - ٩٧٦) إلى أثر البيئة فى الأذواق، ومن ثم فى السلوك واللغة، وما أدى إليه ذلك من آثار فى الشعر، قال: " وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه أحوالهم، فيرقّ شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعّر منطق غيره. وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق. فإن سلامة اللفظ تتبع سلاسة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة. وأنت تجد ذلك ظاهرًا فى أهل عصرك وأبناء زمانك. وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ، معقّد الكلام، وَعْر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته، وفى جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك، ولأجله قال النبى ﷺ "من بدا جفا" ولذلك تجد شعر عدى - وهو جاهلى - أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة - وهما آهلان - لملازمة عدى الحاضرة، وإيطانه الريف، وبُعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب... فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادى إلى القرى، وفشا الأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شىء ذى أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا.. وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق. فانتقلت العادة وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشعرهم هذا المثال. وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ."

اتخذ الجرجانى مما قيل عن عدى بن زيد عمادا، أضاف إليه حديثا نبويا يؤيده، ثم وسع الصورة بحيث شملت البادية والحاضرة وأثر كل منهما فى

---

(١) الجرجانى، الوساطة بين المتنبى وخصومه، ص ١٧ — ١٩.

أذواق الناس وأخلاقهم وسلوكهم وطريقة نطقهم، ثم في ألفاظ أشعارهم وأساليبهم. ولم يقف بالأثر عند البيئة الجغرافية، بل أضاف البيئة الثقافية، بخاصة تلك التي أتى بها الإسلام. ووازن بين عدد من الشعراء للبرهنة على صحة ما أدلى به من أحكام، بل اختار شعراء جاهليين وإسلاميين لهذه الموازنة، ليبين أن أثر المكان أقوى من أثر الزمان.

وإذا انتقلنا إلى ابن رشيق القيرواني (أبي علي الحسن) [1](١٠٠٠ - ١٠٧١) لم نجده يأتي بجديد وإنما يضيف تفاصيل للشرح والإيضاح، ويعود إلى الاقتصار على مطالع القصائد بعد أن كان الحديث قد تعداها إلى عامة الشعر. قال: "وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب، لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول، بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء.. ومقاصد الناس تختلف: فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال، وتوقع البين، والإشفاق منه، وصفة الطلول والحمول، والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومر النسيم، وذكر المياه التي يلتقون عليها، والرياض التي يحلون بها من خُزامى وأقحوان وبَهار وحَنُوة وظَيان وعَرار وما أشبهها من زهر البرية الذى تعرفه العرب، وتنبته الصحارى والجبال، وما يلوح لهم من النيران من الناحية التي بها أحبابهم.. وأهل الحاضرة يأتي أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحراس والأبواب، وفي ذكر الشراب والندامى والورد والنسرين والنيلوفر، وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانية، وفي تشبيه التفاح والتحية به، ودرس الكتب، وما شاكل ذلك مما هم به منفردون".

اخذ ابن رشيق أقوال ابن قتيبة، وأعاد صياغتها، وأضاف إليها ما رصده من أحوال العشاق في الحواضر مما خالفوا فيه عشاق البادية.

---

(١) ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج ١، ص ٢٢٥.

وإجمال القول أن أول ناقد أشار إلى أثر البيئة في الشعر كان من الشعراء، ثم توالى حديث النقاد بعده.

وقد بدا ذلك الحديث ساذجا مبهما عند الأخطل غير أنه اتضح عند ابن سلام الذى أفاد من أحكام اللغويين، وإن اتسع فيها واتجه بها وجهة فنية.

وكان أول ما فطن إليه النقاد من آثار البيئة ما اتصل بكثرة الشعر وقلته ولغته ثم ربط ابن قتيبة (أو من نقل عنه) بين البيئة ومطالع القصائد. ثم وصل التنبيه إلى قمته عند ابن طبا طبا والجرجانى الذين كشفا أثر البيئة فى المضمون والشكل الشعريين، بل أرجع أولهما كل الظواهر الشعرية إلى البيئة.

ثم تنازل النقد عن هذه القمة إلى أقوال تردد الأقوال السابقة نصا، أو تعيد صياغتها، فإن أضافت إليها، فإنما هى تفاصيل فقط.

٢ـ فئة الشعراء

أقدم خبر عثرت عليه يدل على تنبه الشعراء لتأثير البيئة فى عملية الإبداع الفنى، أن كثير بن عبد الرحمن، المعروف بكثير عزة (٧٢٣) سئل ذات يوم [١] يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ "فقال: أطوف فى الرباع المخيلة (الجميلة) والرياض المعشبة، فيسهل على أرضَنه، ويسرع إلى أحسنه". وإذن فكثير يزعم أن هناك بيئات تسد مسالك الشعر أمام الشاعر، وهناك بيئات تدفعه إلى النظم،وأن البيئة التى يتوافر لها الجمال الطبيعى تدخل بالشاعر فى حال انفعالية تصل به إلى عملية الإبداع، تستدعى ما أحب من الشعر. بل يمتاز الشعر الآتى فى مثل هذه البيئة بجمال فنى قد لا يتوافر فى إنتاج غيرها من البيئات.

وربما نجد فيما روى عن معاصره الفرزدق (٧٢٨) مثل هذا التنبه، وإن لم يصرح الشاعر به أو يومئ إليه؛ قال إبراهيم بن محمد الزهرى [٢]: " قدم

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٩.
(٢) الأصفهانى، الأغانى، ج٩، ص ٣٣٧.

الفرزدق المدينة فى إمارة أبان بن عثمان (٦٩٤ - ٧٠١).. فإنى والفرزدق وكثيرا جلوس فى المسجد نتناشد الأشعار، إذ طلع علينا غلام شخت (هزيل) آدم (أسمر) فى ثوبين ممصَّرين (أى مصبوغين بصفرة غير شديدة) ثم قصد نحونا حتى جاء إلينا فلم يسلم. فقال: أيكم الفرزدق؟... فقال له الفرزدق: ومن أنت لا أم لك؟ قال: رجل من بنى الأنصار ثم من بنى النجار ثم أنا ابن أبى بكر بن حزم، بلغنى أنك تزعم أنك أشعر العرب وتزعم مضر ذلك لك، وقد قال صاحبنا حسان (بن ثابت) شعرا فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك سنة، فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب والا فأنت كذاب منتحل. ثم أنشده قول حسان:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

متى ما تزرنا من مَعَدٍّ عصابة وغسان نمنع حوضنا أن يهدما

فأنشده القصيدة إلى آخرها وقال له: إنى قد أجلتك فيها حولا. ثم انصرف وانصرف الفرزدق مغضبا يسحب رداءه ما يدرى أى طريق يسلك حتى خرج من المسجد... فلم نزل فى حديث الفرزدق والأنصارى بقية يومنا. حتى إذا كان الغد، خرجت من منزلى إلى مجلسى الذى كنت فيه بالأمس، وأتانى كثير فجلس معى، فإنا لنتذاكر الفرزدق ونقول: ليت شعرى ما فعل، إذ طلع علينا فى حلة أفواف (قطن) يمانية موشاة، له غديرتان، حتى جلس فى مجلسه بالأمس، ثم قال: ما فعل الأنصارى؟... فنلنا منه وشتمناه. فقال: قاتله الله! ما رُميت بمثله ولا سمعت بمثل شعره! فارقتكما فأتيت منزلى فأقبلت أصعِّد وأصوِّب فى كل فن من الشعر، فلَكأنى مفحَم أو لم أقل قط شعرا حتى نادى المنادى بالفجر، فرحلت ناقتى ثم أخذت بزمامها فقدتها حتى أتيت ذبابا (جبل بالمدينة)... فجاش صدرى كما يجيش المرجل، ثم علقت ناقتى وتوسدت ذراعها، فما قمت حتى قلت مئة وثلاثة عشر بيتا.

وقد أنتجت أمثال قول كثير وفعل الفرزدق مقولة اشتهرت بين الشعراء، وسارت مسار الأقوال الشاردة، تعلن: "ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى، والشرف (المرتفع) العالى، والمكان الخضر الخالى" [1].

ومهما تكن قيمة الأقوال السابقة، فإنها لا تقارن بما وقع فى القرن التالى، ويمكن وصفه بالثورة على العرف الشعرى القديم. فقد تغيرت بيئات الشعراء تغيرا كبيرا، فصاروا أبناء مدن بعد أن كانوا أبناء بادية، بل صاروا أبناء مدن غاية فى التحضر فقدتْ أكثر صلاتها بالبادية مثل الكوفة والبصرة وبغداد، ففقد هؤلاء الشعراء معرفتهم بالبادية، وكان من الطبيعى أن يفقدوا صلتهم العاطفية بها، فيفقدوا إعجابهم بها وإحساسهم بمواطن الجمال فيها. بل شاهت صورتها عند بعضهم فصارت "خرابا يبابا، يسكنها قوم من الأجلاف الغلاظ، يعيشون فى خيام مصنوعة من جلود الأنعام صناعة فطرية... لا يتركون حيوانا من حيوان الصحراء إلا أكلوه حتى الحيات" [2]. قال على بن الخليل فيمن تشبَّه بالأعراب [3].

أتيـــــناه بشَـــــبُّوط ترى فى ظهره حدبا
فقال: أما لبخلك من طعام يذهب السَّغبا
فصِدْ لأخيك يربوعا وضبا واترك اللعبا
فرشت له قَريح المسك والنسرين والغربا
فأمسك أنفه عنها وقام موليا هربا
يشم الشيح والقيصوم كى يستوجب النسبا

وقال أيضا:

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٩.

(٢) البيهيتى، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى، ص ٤٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

فلـــو تـــراه صـــارفا أنفـــه مـــن ريـــح خِـــيرى ونســـرين
لقلـــت: جلـــف بنـــى دارم حـــن إلى الشـــيح بيـــربين
دعمـوص رمـل زل عـن صـخره يعـــاف أرواح البســـاتين
تنـــبو عـــن الـــقاعم أعطافـــه والخـــزّ والســـنجاب واللـــين

وطبيعـى أن يحـس بعـض الشـعراء أن بيئـتهم (ومـا يمارسـون فـيها مـن حـياة) تختلف كـل الاختلاف عـن بيـئة الشـراء السـابقين، وأن يعدلـوا عـن تقليد هـؤلاء الشـعراء فـى إنـتاجهم، لأنهـم يصـورون حـياة غـير حـياتهم، وأن يأخـذوا فـى تصـوير واقعهم الحى.

وكـان العـرف الشـعرى اتخـذ مـن القصـيدة الجاهلـية نمـوذجا أوجـب علـى الشـاعر الفحـل أن يحـتذيه، ولم يقتصـر علـى هـذا بـل حـدد عناصـر تلـك القصـيدة النموذجـية لأنهـا لم تكـن المـثال الأوحـد، وعنـى عـناية خاصـة بمطلعهـا. ويمكـن معـرفة هـذا النموذج مـن قـول ابـن قتيبـة [1] (٨٢٨ ـ ٨٨٩) الـذى ربـط ربطـا وثـيقا بيـنه وبـين البيـئة التـى ظهـر فـيها: "سمعـت بعـض أهـل الأدب يذكـر أن مقصّـد القصـيد إنمـا ابـتدأ فـيها بذكـر الـديار والـدمن والآثـار، فبكـى وشـكا، وخاطـب الرّبْع، واسـتوقف الـرفيق، لـيجعل ذلـك سـببا لذكـر أهلـها الظاعـنين عـنها، إذ كـان نازلـة العمـد فـى الحلـول والظعـن علـى خـلاف مـا علـيه نازلـة المـدر لانـتقالهم مـن مـاء إلى مـاء، وانـتجاعهم الكـلأ وتتـبعهم مسـاقط الغيث حـيث كـان. ثـم وصـل ذلـك بالنسيب فشـكا شـدة الـوجد وألم الفـراق وفـرط الصـبابة والشـوق، ليمـيل نحـوه القلـوب ويصـرف إلـيه الوجـوه... فـإذا علـم أنـه قـد اسـتوثق مـن الإصـغاء إلـيه والاسـتماع لـه عقـب بإيجـاب الحقـوق، فـرحل فـى شـعره وشـكا النصَـب والسـهر وسـرى اللـيل وحر الهجـير وإنضـاء الـراحلة والبـعير. فـإذا علـم أنـه قـد أوجـب علـى صـاحبه حق الرجاء وذمامـة التأميل، وقـرر عـنده مـا نالـه مـن المكـاره فـى المسـير، بـدأ فـى المـديح فبعثـه علـى المكافـأة، وهـزه للسـماح، وفضـله علـى الأشـباه... فالشـاعر المجـيد مـن سـلك

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٣ ـ ٧٧.

هذه الأساليب... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة".

وقد قنع بعض الشعراء بالخروج على هذا العرف، واختاروا عناصر أخرى غير الأطلال لمطالع قصائدهم. وقد وقع هذا منذ عهد مبكر يرجع إلى منتصف العصر الأموى عند عمر بن أبي ربيعة وأتباعه. ولكنه لم يثر الدهشة ولا لفت الأنظار لأنه لم يعلن تحديه للقديم، ولأن بعض القديم نفسه لم يبدأ بالأطلال. فافتتح أبان بن عبد الحميد اللاحقى (٨١٥) مدحته للفضل بن يحيى (٧٦٥ - ٨٠٩) بالغزل والخمر، قال[1] :

نعمنا ليلة الإنعـ ـم حيث العرج ينعرج
بناعمة كمثل البـ ـدر رشاب دلالها غنج
تغادينى المعازف عو دها والصنج والرنج
بسكفى شادن لم أدْ سه فى طرفه غنج
له نغمات قينات بها الأرواح تختلج
أحب من الغناء مليـ ـح ما إيقاعه الهزج
أمرُّ سلافة صرفا كأن صبيبها ودج
كذاك العيش إذ قلبى رخى باله بلج

وكذا فعل أشجع السلمى (نحو ٨١١) ومنصور النمرى (نحو ٨٠٥) وغيرهما.

---

(١) محمد بن يحيى الصولى، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق (مطبعة الصاوى، ١٩٣٤)، ص ١٥.

وافتتح عبد الله بن المعتز (٨٦١ - ٩٠٩) إحدى قصائده بالوقوف على شجرة نبق، لأنها الشجرة التى كان يجتمع مع صاحبته تحت ظلها عند ماء يجاورها، قال[١] :

أيا سدرة الوادى على المشرع العذب سقاك حيا حىُّ الثرى ميتُ الجدب
كذبتُ الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى إليك وإن طال الطريق على صحبى
وقفت بها والصبح ينتهب الدجى بأضوائه، والنجم يركض فى الغرب
أصانع أطراف الدموع، فمقلتى موقَّرة بالدموع، غَرْبا على غرب
وهل هى إلا حاجة قُضيت لنا ولوم تحملناه فى طاعة الحب

الأمر المهم أنهم لم يلتزموا رسما معينا لم يتعدوه، وإنما حرروا أنفسهم واستغلوا مطالع قصائدهم فى التعبير الحر عن أنفسهم وما عنَّ لهم من أفكار. قال أبو نواس فى مطلع مدحته للعباس بن الفضل بن الربيع[٢]:

الحمد لله ليس لى نَشَب فخفَّ ظهرى وقلَّ زوارى
وأحسنت نفسى التعزى عن شىء تولَّى ومِتْن أوطارى
فلست أخشى نفسى على طمع أخاف فيه دريكة العار
من نظرت عينُه إلىَّ فقد أحاط علما بما حوت دارى

وصرح أبو نواس (٧٦٣ - ٨١٤) فى إحدى قصائده بجهله بالصحراء وأنه يصف بيئته التى تقع عيناه عليها فقال[٣] :

---

(١) أبو العباس عبد الله بن المعتز، ديوان عبد الله بن المعتز، تفسير محيى الدين الخياط (بيروت: مطبعة الإقبال، {د. ت})، ص ٨٢.

(٢) أبو على الحسن بن هانى أبو نواس، ديوان أبى نواس (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨)، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٠، والبهبيتى، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى، ص ٤٥٢.

مـالى بـدار خلـتْ مـن أهلـها شـغل ولا شـجانى لهـا شـخص ولا طلـلُ

ولا رسـوم، ولا أبكـى لمنـزلة للأهـل عـنها وللجـيران منـتقل

بـيداءَ مقفـرة يـوما فأنعـتها ولا سـرى بـى فأحكـيه بهـا جمـل

ولا شـتوت بهـا عامـا فأدركنـى فـيها المصيف فلى عـن ذاك مـرتحل

ولا شـددت بهـا مـن خـيمة طُنـبا جـارِى بهـا الضـب والحـرباء والـورل

لا الحَـزْن منـى بـرأى العـين أعـرفه ولـيس يعرفنـى سـهل ولا جـبل

لا أنعـت الـروض إلا مـا رأيـت بـه قصـرا منـيفا علـيه الـنخل مشـتمل

ثـم يمضـى فـى وصـف الـنخل. والحـق أن أبـا نـواس كـان علـى وعـى عمـيق باخـتلاف البيئـتين القديمـة والحاضـرة، وبوجـوب اسـتلهام الشـعراء بيئـتهم الـراهنة. قـيل إنـه عـندما دخـل ليهنـىء الأمـين (٨٠٩ ـ ٨١٣) بـأول قصـائده فـيه، اسـتأذن فـى حـديث يمهـد لقصـيدته قـال فـيه: " يـا أمـير المؤمـنين، إن شـعراء الملـوك قبلـى شـببوا بالمـدر والحجـر، والشـاء والبقـر، والصـوف والوبـر، فغلظـت طـباعهم، وانسـتغلقت معانـيهم، ولا بصـر لهـم بامتـياح خلفائـنا" [1] ثـم أنشـده قصـيدته التـى افتتحها بالخمر:

ألا دارِهـا بالمـاء حتـى تُليـنها فلـن تكـرم الصـهباء حتـى تهيـنها

وعـندما وجـد الشـاعر الخلـيفة لا يعـترض علـى شـعره، غالى فـى مـوقفه، وانـتقل إلى الدعـوة العلنـية الـدؤوب إلى تـرك الوقـوف علـى الأطـلال، والاستعاضـة عـنها بالخمـر أو غيرهـا مـن موضـوعات الحاضـرة. حقـا لم يكـن أبـو نـواس أول مـن رفـع لـواء هـذه الدعـوة ولا الوحـيد فـيها. بـل سبقه إلى أطـراف منها بعـض الشـعراء. فقـد عجب بشار بن برد (٧١٤ ـ ٧٨٤) ممن يقف فيبكى على الأطلال فقال[2]:

(١) أبـو نـواس، ديـوان أبي نواس الحسن بن هانى، حققه وضبطه وشرحه عبد المجيد الغزالى (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٣)، ص ٦٩٨.

(٢) بشار بن برد، ديوان بشار بن برد (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦)، ج ٤، ص ١٥٢.

كـيف يبكـى لمحـبس فـى طلـول مـن سـيبكى لحـبس يـوم طـويل؟

إن فـى الحشـر والحسـاب لشـغلا عـن وقـوف بكـل رسـم محـيل

وفضـل صـديق لمطـيع بـن إيـاس (٧٨٣) موقـف عاشـقين علـى الصـحارى ومـا فـيها مـن مواضـع وجـبال وطـيور، قـال مطـيع[1] " جلسـت أنـا ويحيـى بـن زياد (نحو ٧٧٦) إلى فتـى مـن أهـل الكـوفة كـان ينسـب إلى الصـبوة، ويكـتم ذاك. ففاوضـناه وأخذنا فى أشعار العرب، ووصفها البيد وما أشبه ذلك، فقال:

لأحسـنُ مـن بـيدٍ يحـار بهـا القطـا ومـن جبلـى طـىٍّ ووصـفِكما سـلعا

تَلاحُـظ عينـى عاشـقين، كلاهمـا لـه مقلـة فـى وجـه صـاحبه ترعـى

وسـخر سـلم الحاسـر (٨٠٢) فـى مدحـته للمهـدى (٧٧٥ ـ ٧٨٥) ممـن يصـف الصحراء والرحلة فيها، قال[2]:

حـى المنابـر بالسـلا م علـى وداع أو لمـام؟

لم يـبق مـنك ومـنهم غـير الجلـود علـى العظـام

ولقـد سـكرت مـن الهـوى سـكر الغـوى مـن المـدام

فالقلـب مضـطرب الحشـا والعـين نافـرة المنـام

فـإذا عـزمت فـامض همْـ ـمَـك بـين محمـود وذام

ودع النـوافخ فـى البُـرَى يسْـبحن فـى بحـر الظـلام

ودعـا عـبد الله بـن أبـى أميـة[3] دعـوة صـريحة إلى إهمـال الوقـوف علـى الأطـلال فى عبارة كأنها صادرة من أبى نواس، قال:

---

(١) أبو العباس عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ذخائر العرب، ٢٠ (القاهرة: دار المعارف، {د. ت}). ص ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢٣.

دع دارســـــات الطلـــــول وكـــــلّ ربـــــع محـــــيل

ولا تصِـــــف دار ســـــلمى ذرهـــــا لكـــــل جهـــــول

ولا تقـــــل : آل ليلـــــى قـــــد آذنـــــوا بـــــرحيل

ولم ينفرد أبو نواس بحملته على الأطلال بل شاركه فيها كثير من معاصريه، الذين أغرموا بخاصة بالخمريات، من أمثال الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع (٧٧٩ - ٨٦٤) الذى هاجم البادية، وما تنبته من زروع، وما تفرضه على سكانها من شرب لبن الإبل والنِعاج ولبس لملابس خشنة قديمة، وركوب للخيل، ووصف كل ما فى البادية بالأقذاء، وكل من فيها بالأجلاف، قال[1]:

بُدِّلتَ من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك دَرّ الإبل والشاء

ما بين بطن بثيران حللت به إلى الفراديس إلا شوب أقذاء

فعدِّ همك عن طِرْف يمارسه جلف تلفّع طمرا بين أحناء

ولذلك يعد المؤرخون هذه الحملة ثورة عامة أعلنها المجددون فى مطلع العصر العباسى للمواءمة بين شعرهم وبيئتهم الحضرية الحديثة وما تمتلىء به من تيارات ثقافية جديدة. ويعد المؤرخون أبا نواس زعيم هذه الثورة لإلحاحه فى الإعلان والدفاع عنها، ولاتساعه فيها حتى شملت الأعراف البدوية من وقوف على الأطلال، وبكاء عندها، وحديث معها، وتغزل بأسماء عربية معينة، ووصف للرحلة فى الصحارى المجدبة الفسيحة لبلوغ الممدوح، وتصوير لحياة أهل هذه الصحارى وما عرفوه من حيوان ونبات. قال فى إحدى قصائده [2]:

انُسَ رسمَ الديار ثم الطلولا وارفض الربع دارسا ومحيلا

هل رأيت الديار ردّت جوابا وأجابت لذى السؤال سؤولا

---

(١) الحسين بن الضحاك، أشعار الخليع (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٠)، ص ١٩.

(٢) أبو نواس، ديوان أبو نواس الحسن بن هانى، تحقيق الغزالى، ص ٦٧٣.

واشْـــربنْها كأنهـــا عـــين ديـــك يطـــرد الهـــمَّ طعمُهـــا والغلـــيلا

وقال[1] :

دع الأطـــلال تســـفيها الجـــنوب وتبكـــى عهـــد جـــدتها الخطـــوب

وخـــلْ لـــراكب الوجـــناء أرضـــا تخـــب بهـــا النجيـــبة والنجـــيب

ولا تأخـــذ عـــن الأعـــراب لهـــوا ولا عيشـــا فعيشـــهم جـــديب

بـــأرض نيـــتُها عُشَـــر وطلـــع وأكثـــر صـــيدها ضـــبع وذيـــب

إذا راب الحلـــيب فـــبُلْ علـــيه ولا تحـــرجْ فمـــا فـــى ذاك حُـــوب

فأطـــيب مـــنه صـــافية شَـــمول يطـــوف بكأســـها ســـاقٍ أريـــب

مـن أجـل ذلـك لا نعجـب عـندما نجـد مـن الأدبـاء مـن اتهمـه بالشـعوبية، أى كـراهية العـرب والتعصـب علـيهم ممـالأة لأصـله الفارسـى. ولكـن غيرهـم اعـتدل فاكتفى بالقول بأنه "كان شعوبى اللسان" [2] وبرأه من شعوبية القلب.

والأمـر الغـريب فـى هـذه الدعـوة أنهـا ـ علـى الـرغم مـن اعـتمادها علـى واقـع البيـئات الجديـدة ـ لم تـنل الـنجاح المقدر لهـا. واسـتمر الشـعراء بـل المجـددون منهم أمـثال أبـى تمـام (٨٠٦ ـ ٨٤٦) والمتنبـى (٩١٥ ـ ٩٦٥) والمعـرى (٩٧٣ ـ ١٠٥٧) فـى الأجـيال التالـية يلتـزمون بالعـرف العربـى القـديم فـى تصـوير الأطـلال والصـحراء. واضـطر أبـو نـواس نفسـه إلى التـنازل عـن دعـوته، والعـودة إلى العـرف القـديم فـى بعـض مدحـه، إرضـاء للممـدوحين. ويكشـف لـنا ذلـك أن الخلفـاء وكـبار القـوم وعلمـاء اللغـة فـى بغـداد احتضـنوا العـرف القـديم، وقاومـوا كـل مسـاس بـه، وفرضـوه علـى الشـعراء فرضًـا. ويكشـف أيضًـا أن البيـئة الثقافـية غلـبت البيـئة الجغـرافية، ودفعـت الشعراء إلى الاحتذاء، أو التحديد فى داخل الإطار القديم.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١.

(٢) ابن رشيق، العمدة فى صناعة الشعر ونقده، ج ١، ص ٢٣٢.

والغريب أيضا أن دعوة أبي نواس صارت دعوة تقليدية رددها شعراء الخمر بعد تظرفًا منهم، دون أن تكون منهم ثورة أو محاولة للثورة، ودون أن يكون ذلك منهم تلبية لشعور بيئي. يقول ابن وكيع التنيسي (١٠٠٣) مثلا في إحدى خمرياته[١]:

ذا العيش لا نعت المهامة والفلا وسؤال رسم الدار والأحجار

لا فرج الرحمن كربة جاهل يبكي على الأطلال والآثار

وورد إلينا خبر من القرن العاشر يدل أن الشاعر العربي اتسعت فطنته بالأثر البيئي، فتنبه إلى أن البيئة الضيقة الخاصة تفرض من الآثار مثل ما تفرض البيئة العامة الواسعة. قيل[٢]: إن أحد الأشخاص سأل ابن الرومي (٨٣٦ ــ ٨٩٦) لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال له: أنشدني شيئا من شعره أعجز عن مثله. فأنشده وصف ابن المعتز للهلال:

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال ابن الرومي : زدني. فأنشده:

كأن آذريونها والشمس فيها كاليه

مداهن من ذهب فيها بقايا غالیه

فصاح ابن الرومي: "واغوثاه، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ذلك إنما يصف ماعون بيته".

---

(١) حسين نصار، محقق، ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر (القاهرة: مكتبة مصر، {د. ت})، ص ٦٠.

(٢) يوسف بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، وجمال محمد محرز وجمال الدين الشيال، ٦١ج (القاهرة د: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢)، ج ٣، ص ٩٦.

ومجمل القول إن الشعراء خضعوا للآثار التى تفرضها كل بيئة وما يجرى فيها من تيارات ثقافية متعيرة. عن وعى من بعضهم، وعن غير وعى من أكثرهم. ولذلك اختلفت صورة ما أصدروه من شعر فى الأقطار العربية المتعددة، والعصور المتعاقبة.

ولم يقف الأمر بهم عند هذا بل كان منهم من له حس أرقّ وفطنة أثقب، فتنبهوا إلى أثر البيئة فى المجالات الشعرية المتعددة. وكشف أقدم الأخبار التى عثرنا عليها من أن أقدم تنبه كان فى مجال عملية الإبداع، عونا لها أو إعاقة.

ثم فطن الشعراء إلى ما تخلفه البيئة من آثار فى شكل القصيدة ومضمونها، بل إلى عناصر جزئية فى المضمون. وقد أثار هذا التنبه أول ثورة عامة على العرف العربى القديم فى بناء القصيدة.

٣ـ مؤرخو الأدب

أولع العرب بالأخبار التاريخية منذ جاهليتهم، فتداولت كل قبيلة قصص تاريخها فى أسمارها، وحافظت عليها حفاظها على كيانها. ولذلك لم يعجب العلماء عندما وجدوا العرب يبادرون إلى التأليف التاريخى منذ عصر مبكر كل التبكير بعد الإسلام، ووجدوهم يبتكرون من وجوه التأليف التاريخى ما لا نجده عند أمة غيرها فى قديمها فيما أعتقد.

وأقدم تاريخ عثرت على أخباره، ويتناول بقعة معينة، هو الكتاب الذى ألفه محمد بن الحسين بن زبالة، فى تاريخ المدينة، وفرغ من تأليفه فى تشرين الأول / أكتوبر عام ٨١٤.

والكتاب أو الكتب التالية هى ما ألفه محمد بن عمر الواقدى (٧٤٧ ـ ٨٢٣) عن فتوح البلدان، أو فتوح الشام ومصر وأرمينية والعجم والعراق وغيرها. ثم توالت الكتب التى اختص كل منها بمنطقة واحدة مثل أخبار مكة لأحمد بن محمد المعروف بابن الأزرق (٨٣٤)، وأخبار البصرة لعمر بن شبة (٧٨٩ ـ ٨٧٨) وغيرهما، أو عمت أكثر من منطقة مثل فتوح مصر والمغرب وأخبارهما

لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (٨٧١)، وفتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذرى (٨٩٢)، وغيرهما من الكتب التى قسمت ما احتوت عليه من فصول على أساس جغرافى. وعلى الرغم من أن هذه الكتب لا تمتّ إلى التاريخ الأدبى، فلا أشك أنها ساهمت فى لفت الأنظار إلى الأساس الجغرافى، وأدخلته فى الإطار الثقافى للإنسان العربى فى القرن التاسع.

وأقدم كتاب فى التاريخ الأدبى وصل إلينا هو كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى (٧٦٧ - ٨٤٦). وقد قصر المؤلف كلامه على أربعين شاعرا من الفحول المشهورين فى الجاهلية، ومثلهم فى الإسلام، وما قارب ذلك من شعراء ذوى لون خاص.

وكما اختار الجمحى الشعراء على أساس تحكمى، قسمهم إلى طبقات على أساس تحكمى أيضًا. فاعتمد فى التقسيم - كما يقول - على تشابه الشعر. ولكنه جعل كل أربعة من الجاهليين - ومن الإسلاميين كذلك - طبقة. وأقام الكتاب كله على هذا النظام. وذلك أمر محال. وقد شعر المؤلف بهذا، فقال ذات مرة، وهو يتحدث عن أوس بن حجر، الذى وضعه فى الطبقة الثانية من الجاهليين: "وأوس نظير الأربعة المتقدمين إلا إنا اقتصرنا فى الطبقات على أربعة رهط"[1].

وعدل المؤلف عن هذا الأساس فى عدد من الشعراء وضعهم بين طبقات الجاهليين وطبقات الإسلاميين. حقا جعلهم طبقات، غير أنه خصص واحدة لأصحاب المراثى، وأخرى لشعراء القرى العربية، وعنى بها المدينة ومكة والطائف والبحرين واليمامة، وطبقة ثالثة لليهود.

ويبين هذا أن ابن سلام راعى فى تقسيمه الشعراء الذين تناولهم فى كتابه الأسس التالية:

---

(١) الجمحى، طبقات فحول الشعراء، ص ٨١.

١ ـ لون الشعر، فجعل لأصحاب الرثاء طبقة، وللرجاز الطبقة التاسعة من الإسلاميين.

٢ ـ جودة الشعر وكثرته، فقدم الطبقات التى تتحلى بهاتين الخاصتين، وأخر التى تفتقر إلى إحداهما.

٣ ـ جنس الشاعر، فخص يهود المدينة بطبقة.

٤ ـ بيئة الشاعر، حين جمع شعراء القرى معا، وتكلم عن أهل كل قرية منها منفردين، وحين أفرد الطبقة السادسة من الإسلاميين لأربعة شعراء من الحجاز.

وكان ذلك أول التفات إلى البيئة فى كتب التاريخ الأدبى.

ويبدو أن دعبل بن على الخزاعى (٧٦٥ ـ ٨٦٠) راعى الأساس البيئى فيما كتب عن الشعراء العباسيين، إذ يقال إنه ألف كتابا فى شعراء بغداد، وآخر فى شعراء البصرة، وثالثا فى شعراء خراسان. وسواء أكانت هذه الكتب أجزاء من كتابه المعروف طبقات الشعراء ـ كما يرجح د.محمد زغلول سلام[1] ـ أم كانت كتبا مستقلة، فإن دلالتها لا تتغير، وتؤكد إقامة حديثه عن هؤلاء الشعراء على أساس جغرافى واضح.

ولم يصل إلينا الكتاب التالى، وهو البارع لهارون بن على بن يحيى المنجم (٩١٠). وقد أعطى ابن خلكان هذا الكتاب وصفين متناقضين، فأوقعنا فى الحيرة فقد قال فى ترجمته للعماد الأصفهانى[2] : "صنف التصانيف الفائقة، من ذلك كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" جعله ذيلا على "زينة دمية الدهر" تأليف أبى المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى، والحظيرى جعل كتابه

---

(١) سلام، تاريخ النقد الأدبى والبلاغة ، ص ١١٦.

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ــ ١٩٤٩)، ج ٤، ص ٢٣٥.

ذيلا على "دمية القصر وعصرة أهل العصر" للباخرزى، والباخرزى جعل كتابه ذيلا على "يتيمة الدهر" للثعالبى... والثعالبى جعل كتابه ذيلا على كتاب "البارع" لهارون بن على المنجم". وعاد إلى تأكيد هذا القول فى ترجمته لهارون فقال[1]: وهذا الكتاب هو الذى ذكرته فى ترجمة العماد الكاتب الأصبهانى، وقلت: إن كتاب الخريدة، وكتاب الحظيرى والباخرزى والثعالبى، فروع عليه، وهو الأصل الذى نسجوا على منواله" وقبل هذا القول كل من كتب عن البارع، أو يتيمة الدهر للثعالبى، أو منهج الثعالبي فى تأليفها. ولما كانت كل الكتب التى ذكرها ابن خلكان تعتمد على أساس جغرافى فى التقسيم كان لنا الحق أن نعتقد أن ابن المنجم اعتمد على هذا الأساس، بل كان أول مؤرخ أدبى قسم كتابه كله على أساس جغرافى.

ولكن هذا الاستنتاج لا يتفق مع وصف ابن خلكان نفسه للبارع أيضا، فى قوله: "افتتحه بذكر بشار بن برد، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح" [2] ذلك الوصف الذى يقارب وصف كتاب الباهر الذى بدأ تأليفه أخوه يحيى بن على (٨٥٥ - ٩١٢) وأتمه ولده أحمد، ووصفَ طبقات ابن المعتز. وقد صرح ابن المعتز فى مقدمة كتابه طبقات الشعراء بأنه تابع فيه ابن المنجم فى كتابه طبقات الشعراء [3] الذى قطع محمد بهجة الأثرى أنه أراد به البارع[4]. فإذا صح ذلك، وجب إخراج البارع من هذه المجموعة، فلا أساس جغرافيا فى كتاب ابن المعتز. ويؤكد هذا أن كتب هذه المجموعة صرحت أنها تتبع الثعالبى ومن بعده من المؤلفين، ولم يذكر أحد منها ابن المنجم.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٧.

(٣) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ١٨، وفيه ابن نجيم، غير أن الأثرى رأى أنه محرف عن ابن المنجم.

(٤) عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقى، تحقيق محمد بهجة الأثرى وجميل سعيد (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، {د. ت})، "المقدمة" ص ٨٤.

ويلف الغموض أحد الكتب المنسوبة إلى محمد بن يحيى الصولى (٩٤٦)،فقد سمته بعض المصادر كتاب شعراء مصر، وبعضها شعراء مضر[1]. فإذا صح العنوان الأول كان أول كتاب يتناول الشعراء المصريين بالحديث، وكان الأساس الجغرافى واضحا فيه.

ونبرز إلى الضياء مع كتاب عبد الملك بن محمد الثعالبى (٩٦١ - ١٠٣٧) المسمى يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر. فقد رأى العالم الإسلامى يستظل بثلاث خلافات متخاصمة ومتنافسة: عباسية سنية فى المشرق، وفاطمية شيعية فى الشام ومصر والمغرب، وأموية سنية فى الأندلس. ورأى الشعراء الفحول يظهرون أو ظهروا فى كل واحدة من هذه الخلافات، ولا يقتصر الأمر على بغداد أو العراق. بل رأى الشعر العربى ينزوى عن جزء من بلاد فارس تهيمن عليه الدولة السامانية، ويسلمه إلى شعر فارسى اللغة، أخذ يقوى شيئًا فشيئًا إلى أن أظهر أول شعرائه الكبار فى أبى جعفر رودكى (٩٤١).

فاتخذ الثعالبى من التقسيم البيئى أساسًا لكتابه. ورتب شعراء عصره الذين ذكرهم فى أقسام أربعة:

ـ القسم الأول فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها من مصر والموصل [والمغرب] ولمع من أخبارهم.

ـ القسم الثانى فى محاسن أشعار أهل العراق، وإنشاء الدولة الديلمية من طبقات الأفاضل، وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم، وفصوص من فصول المترسلين منهم.

ـ القسم الثالث فى محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان من وزراء الدولة الديلمية وكتّابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها، وما ينضاف إليها من أخبارهم وغرر ألفاظهم.

---

(١) محمد بن يحيى الصولى، أخبار البحترى (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٤)، ص ٢٦.

ـ القسم الرابع فى محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر، من إنشاء الدولة السامانية والغزنية، والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق، والمتصرفين على أعمالها، وما يستطرف من أخبارهم، وبخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئين عليها والمقيمين فيها.

ثم قسم كل واحد من هذه الأقسام إلى عشرة أبواب: فكانت أبواب القسم الأول كما يلى:

ـ الباب الأول فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان..

ـ الباب الثانى فى ذكر سيف الدولة..

ـ الباب الثالث فى ذكر أبى فراس...

ـ الباب الرابع فى ملح شعر آل حمدان وغيرهم من أمراء الشام وقضاتها وكتّابها.

ـ الباب الخامس فى ذكر أبى الطيب المتنبى...

ـ الباب السادس فى ذكر النامى والناشى والزاهى...

ـ الباب السابع فى ذكر أبى الفرج عبد الواحد الببغاء...

ـ الباب الثامن فى ذكر الخليع الشامى والوأواء الدمشقى وأبى طالب الرقى.

ـ الباب التاسع فى ملح أهل الشام ومصر والمغرب...

ـ الباب العشر فى ذكر شعراء الموصل...

وتأتى أبواب القسم الثانى كما يلى:

ـ الباب الأول فى ذكر ملوك آل بويه...

ـ الباب الثانى فى ذكر المهلبى الوزير...

ـ الباب الثالث فى ذكر أبى إسحاق الصابى.

ـ الباب الرابع فى ذكر ثلاثة من كتاب آل بويه يجرون مجرى الوزراء: عبدالعزيز بن يوسف، وعبد الرحمن بن الفضل الشيرازى، وعلى بن القاسم القاشانى.

ـ الباب الخامس فى ذكر شعراء البصرة...

ـ الباب السادس فى ذكر نفر من شعراء العراق ونواحيها سوى بغداد...

ـ الباب السابع فى ذكر قوم من شعراء بغداد...

ـ الباب الثامن فى تفاريق من ملح المقلين من أهل بغداد ونواحيها، والطارئين عليها من الآفاق، والمقيمين بها.

ـ الباب التاسع فيما أخرج من مجموع أشعار أهل العراق وغيرهم من الوزير أبى نصر سابور بن أردشير.

ـ الباب العاشر فى ذكر الشريف أبى الحسن الرضى الموسوى النقيب..

وهذه أبواب القسم الثالث:

ـ الباب الأول فى ذكر ابن العميد...

ـ الباب الثانى فى ذكر ابنه أبى الفتح ذى الكفايتين...

ـ الباب الثالث فى ذكر الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد...

ـ الباب الرابع فى ذكر أبى العباس أحمد بن إبراهيم الضبى...

ـ الباب الخامس فى محاسن أشعار أهل العصر من أصبهان.

ـ الباب السادس فى ذكر الشعراء الطارئين على حضرة الصاحب [ابن عباد] من الآفاق سوى من يقع ذكره منهم فى أهل خراسان وطبرستان، فإن لهم باباً منفردا فى هذا الربع الثالث، وسوى أبى طالب المأمونى وأبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان أبى الفضل الهمذانى، فإن لذكر كل منهم مكانا فى الربع الرابع.

ـ الباب السابع فى ذكر سائر شعراء الجبل، والطارئين عليه من العراق وغيرها...

ـ الباب الثامن فى ذكر... أهل فارس والأهواز، سوى من تقدم ذكرهم فى ساكنى العراق.. وسوى من يتأخر ذكرهم فى الطارئين على خراسان.

ـ الباب التاسع : ذكر... أهل جرجان وطبرستان.

ـ الباب العاشر فى ذكر الأمير السيد شمس المعالى قابوس بن وشمكير..

وهذه أبواب القسم الرابع:

ـ الباب الأول فى إيراد محاسن وطرف من أخبار وأشعار قوم سبقوا أهل عصرنا هذا قليلا وتقدموهم يسيرا، ومن أبناء الدولة السامانية، وإنشاء الحضرة البخارية وسائر شعراء خراسان، الذين هم ـ مع قرب العهد ـ فى حكم أهل العصر.

ـ الباب الثانى فى ذكر العصريين المقيمين بالحضرة البخارية، والطارئين عليها، والمتصرفين فى أعمالها.

ـ الباب الثالث فى ذكر المأمونى والواثقى...

ـ الباب الرابع فى غرر فضلاء خوارزم.

ـ الباب الخامس فى ذكر أبى الفضل الهمذانى.

ـ الباب السادس فى ذكر أبى الفتح البستى وسائر أهل بست وسجستان...

ـ الباب السابع فى تفاريق من ملح أهل بلاد خراسان سوى نيسابور..

ـ الباب الثامن فى ذكر الأمير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى...

ـ الباب التاسع فى ذكر الطارئين على نيسابور من بلدان شتى على اختلاف مراتبهم، فمنهم من فارقها، ومنهم من استوطنها... سوى من تقدّم ذكره منهم فى سائر الأبواب.

ـ الباب العاشر فى ذكر النيسابوريين الذين تقع محاسن أقوالهم فى هذا الباب...

يتجلى من هذا العرض للأقسام والأبواب أن الثعالبى أقام أقسام كتابه وأبوابه على أساس جغرافى واضح. فتناول القسم الأول المنطقة من الشام شرقا إلى المغرب غربا، والثانى العراق، والثالث إيران تقريبا، والرابع خراسان وما وراء النهر. وأقام الأبواب على مدينة أو إقليم واحد أحيانًا، مثل الموصل والبصرة والعراق وأصبهان والجبل وبخارى وخوارزم وخراسان. وأقامها على أكثر من مدينة مثل الباب التاسع فى القسم الأول، والثامن والتاسع فى القسم الثالث، والسادس فى القسم الرابع. ولكنه فى الباب التاسع من القسم الثالث فصّل الحديث عن جرجان عن حديثه عن طبرستان. وأعطى بغداد ثلاثة أبواب، ونيسابور بابين، لاعتبارات مختلفة، ويظهر الأساس الجغرافى فى بابى نيسابور، لأن أحدهما لأبنائها، والثانى للطارئين عليها. وفصل الحديث عن المقيمين عن الحديث عن الطارئين فى داخل الباب التاسع من القسم الثالث أيضا. وقد خلط الطارئين بالمقيمين دون تفرقة بينها فى أبواب أخرى، مثل الأبواب السادس والسابع والثامن من القسم الثالث، والبابين الثانى والتاسع من القسم الرابع. بل فعل ذلك فى أقسام أخرى من دون أن يصرح بذلك فى عناوينها، كما يتجلى فى القسم الأول خصوصا. بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما خصص أحد الأبواب للطارئين على أحد الأشخاص من البيئات المختلفة، مثل الباب التاسع فى القسم الثانى، والسادس فى القسم الثالث. وأعطى بخارى بابين أقامهما على أساس زمنى يتجلى فى البابين الأول والثانى من القسم الرابع. ولما فعل ذلك وغيره، اضطر إلى أن يخرج بعض الشعراء من الأبواب التى يستحقونها جغرافيا، كما فعل فى الباب السادس من القسم الثانى، والبابين السادس والثامن من القسم الثالث، والبابين السابع والتاسع من القسم الرابع.

ولذلك: حين أقول إن الثعالبى أقام كتابه على أساس جغرافى، لا أعنى أنه التزم هذا الأساس التزاما دقيقا سالما من الشوائب. فنحن نرى المؤلف فى العناوين السابقة يتخذ من الفئات الحاكمة لا البيئات مواد بعض عناوينه؛ ونراه

يجمع فى القسم الواحد بين بيئات مختلفة متباعدة، وعلى الرغم من ذلك، لقى كتاب يتيمة الدهر من إعجاب مؤرخى الأدب، ما جعلهم يتخذونه مثالا يحتذونه فى أعمالهم، فيؤرخ كل منهم لأهل عصره، ويقيم الحديث عنهم على أساس جغرافى كما فعل الثعالبى. بل اتبعوه فى حديثه المسجوع الذى لا يقدم معلومات عن أديب ممن تناولهم ولا يقومه تقويما حقيقيا.

وبعد مدة تجمعت لدى الثعالبى معارف تنتمى إلى الكتاب، الذى كان اشتهر بين العلماء، فدونها فى ملحق سار فيه على منهج اليتمية، قال: " ووقع إلىّ على الأيام ما ينخرط فى سلكه ويصلح للإلحاق به، ولا يسوغ تأخيره عن إخوانه، لا سيما وقد خلا منه مكان قوم من السادة والكبراء، لا مترك لثمار خواطرهم ووسائط قلائدهم (و) عنّ لى حذو كتاب لطيف على تمثيله وترتيبه، وإيداعه ما شذ عنه من طرزه وجنسه... وقد قررت عنوان الكتاب تتمة اليتيمة"[1].

وذكر صاحب كشف الظنون [2] أن لتقى الدين عبد القادر المصرى (١٥٩٦) مختصرا لليتيمة فى مقدار نصفها.

وألف على بن الحسن الباخرزى (١٠٤٤) كتاب دمية القصر وعصرة أهل العصر وقسم معاصريه الذين تناولهم إلى سبعة أقسام، هى:

- القسم الأول فى محاسن شعراء البدو والحجاز.

- القسم الثانى فى طبقات شعراء الشام وديار بكر وأذربيجان والجزيرة وسائر بلاد المغرب.

- القسم الثالث فى فضلاء العراق.

---

(١) عبد الملك بن محمد الثعالبى، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر (طهران، ١٣٥٣ هـ)، ج ١، ص٩.

(٢) مصطفى بن عبد الله حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، ص ٢٠٤٩ و ٢٠٥٠.

ـ القسم الرابع في شعراء الري والجبال وأصفهان وفارس وكرمان.

ـ القسم الخامس في فضلاء جرجان واستراباذ ودهستان وقومس وخوارزم وما وراء النهر.

ـ القسم السادس في شعراء خراسان وقهستان وبست وسجستان وغزنة.

ـ القسم السابع في طبقة من أئمة الأدب، أورد فيه عشرين رجلا ممن لم يعرفوا بالشعر، لم يراع في إيرادهم ترتيب ما،وكان كل واحد من هؤلاء الأدباء ينتمي إلى مدينة غير مدن رفاقه. وذكر الباخرزي أنه جعل الأعلام في داخل كل قسم ثلاث طبقات زمنية [1] "منهم السابقون الأولون، ومنهم اللاحقون المخضرمون، ومنهم المحدثون العصريون" غير أن الكتاب لا يفرد كل طبقة بفصل خاص بل لا نجد فصولا في الكتاب في غير القسم السادس فقد افتتحه بخمسة من الأدباء عدّهم [2] "نجوما أرضية نظموا من أسلاك القوافي عقودا مرضية... هم في مواكب الفضل خميس، وما منهم إلا مقدم أو رئيس" كذلك فعل مع أدباء مدينته باخرز [3] " عناية بأرض خرجتني، وإلى هذه الرتب العالية درّجتني..." كذلك نجد فيه عنوانا لطبقات مدينة بيهق [4]، وآخر لاسفراييين[5].

وواضح أن الباخرزي تناول الأقاليم التي تناولها الثعالبي، وعالج معاصريه من الشعراء خصوصا، والكتاب عموما كما فعل الثعالبي، وأنهما اشتركا في بعض التراجم لأن الباخرزي وجد الثعالبي لم يعطها ما تستحق. وعلى الرغم من

---

(١) علي بن الحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧٠) ج١، ص ١٢١.

(٢) المصدر نفسه (النجف الاشرف: مطبعة النعمان، ١٩٧١)، ج٢، ص٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٥

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣١١.

أن الباخرزى قسم الكتاب إلى سبعة أقسام، لم تبرأ الدمية مما لاحظناه فى اليتيمة، ومما سنجده فى معظم الكتب التالية.

وانتقل المنهج إلي الأندلس في القرن الثاني عشر فاتبعه علي بن بسام الشنتريني (١١٤٧) في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة غير أنه قصره علي الأندلس وحدها من الأقطار العربية.

وجعل المؤلف كتابه في أربعة أقسام:

- الأول منها لأهل قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس.
- الثاني لأهل الجانب الغربي.
- الثالث لأهل الجانب الشرقي.
- الرابع للطارئين علي الأندلس. واستطرد إلي ثلاثة عشر أديبًا من المشارقة المعاصرين الذين لا صلة لهم بالأندلس. وأعلن أنه عقد هذا القسم "اقتداء بأبي منصور في تأليفه المشهور، المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"[1].

وصرح [2] أنه حشا كل قسم بالحديث عمن ملكه ثم الكتاب والوزراء ثم أعيان الشعراء ثم المقلّين منهم، غير أنه لم يفصل بين كل فئة وأخري لتداخلها، ولذلك كثيرًا ما لا يتضح هذا المنهج.

وقال العماد الأصفهانى [3] عن القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير (١١٦٧): "صنف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان، وذيل به اليتيمة، وطالعت منه جزءا، ذكر فيه شعرا.

---

(١) أبو الحسن على بن بسام الشنترينى، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩)، ج١، القسم الأول ، ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١، القسم الأول، ص ٢١.

(٣) الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقى، و" قسم شعراء مصر"، ج ١، ص ١٠٢.

ويدل هذا القول أن القاضي الرشيد قسم كتابه علي أساس جغرافي،وإن كان الكتاب مفقودا، على الرغم من استفادة من كتبوا عن شعراء مصر منه، مثل العماد في الخريدة، وابن سعيد في المغرب. ويؤكد هذا الاستنتاج قول الأدفوى في الطالع السعيد [1]: "ذيل به على اليتيمة".

وعلى الرغم من ذلك، لا أستطيع المواءمة بين هذه الأقوال وقول ياقوت الذى يدل على أنه لم يتناول إلا من عاش في مصر من الشعراء، قال: "كتاب جنان الجنان وروضة الأذهان في أربع مجلدات، يشتمل على شعر شعراء مصر ومن طرأ عليهم" [2].

وألف البيهقي (١١٠٦ - ١١٠٧) ذيلا على دمية القصر، جمع فيه أشعار أهل عصره وسماه وشاح الدمية ثم ألف تتمة له في مجلد خفيف سماه درة الوشاح. وقد اختلف العلماء في اسم البيهقي، فجعله السمعاني في الذيل: أبا الحسن على بن زيد [3]، وجعله العماد الأصفهاني في الخريدة: شرف الدين أبا الحسن على بن الحسن. والمرجح هو الأول، فهو المنقول عن خط يده[4]. وقد عثر في خزانة كتب حسين جلبي بمدينة بورسة في تركيا على جزء من الدرة[5].

وألف أبو المعالى سعد بن على القاسم الأنصارى الحظيرى المعروف بدلال الكتب (١١٧٢) زينة الدهر وعصرة أهل العصر، الذى سماه ابن الدبيثي زينة

---

(١) جعفر بن ثعلب الأدفوى، الطالع السعيد الجامع اسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، مراجعة طه الحاجرى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٦)، ص ١٠٠.

(٢) ياقوت الحموى، معجم الأدباء ج٤، ص ٥٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٦٧، وياقوت الحموى، معجم الأدباء، ج ١٣، ص ٢١٩.

(٥) جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، فهرست المخطوطات المصورة (القاهرة: الجامعة، المعهد، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٥٤٥.

الدهر فى لطائف شعراء العصر جمع فيه جماعة كثيرة من أهل عصره ومن تقدمهم[1].

وألف عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد القرشى الأصبهانى (١١٢٥ - ١٢٠١) كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لأهل عصره وجعله فى أربعة أقسام:

- القسم الأول لشعراء العراق.

- القسم الثانى لشعراء العجم وفارس وخراسان.

- القسم الثالث لشعراء الشام والموصل وجزيرة بنى ربيعة وديار بكر وما يجاورها من البلاد، والحجاز وتهامة واليمن.

- القسم الرابع لشعراء مصر وأعمالها وجزيرة صقلية والمغرب والأندلس.

وفصل شعراء كل إقليم عن الأقاليم الأخرى التى جمعها تحت قسم واحد. واتبع فى الترجمة نهجا مماثلا لنهج الثعالبى فى اليتيمة.

وبعد مدة من تأليف الخريدة، عثر العماد على جماعة من الشعراء أهملهم أو أخل الحديث عنهم، فاستدركهم فى كتاب فى ثلاثة مجلدات أورد العلماء اسمه فى صور متعددة، فقيل السيل، وقيل السيل والذيل، وقيل السيل على الذيل[2].

واختصر الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى الخريدة، ويبدو أن خزانة كتب المجمع العلمى العراقى تقتنى مختصرا عن هذا المختصر[3].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٠٩، الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقى، "المقدمة" ج١، ص ٨٦، وياقوت الحموة، معجم الأدباء ج ١١، ص ١٩٤.

(٢) الأصفهانى، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٤.

(٣) المصدر نفسه.

واختصرها أيضا على بن محمد المعروف برضائى الرومى (١٦٢٩) فى كتاب يسمى عود الشباب أو الشهاب بطرد الذباب، وتتوزع نسخه على برلين واسطنبول وفيينا[1].

ثم أخرج على بن موسى المعروف بابن سعيد الأندلسى (١٢١٤ - ١٢٧٥) كتابى المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق. وأراد بالمغرب المنطقة من مصر إلى المغرب والأندلس، وبالمشرق المنطقة من الشام إلى أقصى الوطن العربى شرقا، وعالج كل واحد من هذه المناطق معالجة جغرافية.

فقد قسم منطقة الأندلس إلى غرب وموسطة وشرق، وأفرد لكل قسم منها كتابا فسمى كتاب الغرب كتاب العرس فى حلى غرب الأندلس، وسمى كتاب الموسطة كتاب الشفاه اللعس فى حلى موسطة الأندلس، وسمى كتاب الشرق كتاب الأنس فى حلى شرق الأندلس.

ولم يقنع بهذا بل قسم كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة تبعا للممالك التى ظهرت فيه، وأعطى كلاً منها كتابا. فكان نصيب غرب الأندلس سبعة كتب هى:

- كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة.
- كتاب الذهبية الأصيلية فى حلى المملكة الإشبيلية.
- كتاب الفردوس فى حلى مملكة بطليوس.
- كتاب الخلب فى حلى مملكة شلب.
- كتاب الديباجة فى حلى مملكة باجة.
- كتاب الرياض الصونة فى حلى مملكة أشبونة.
- كتاب خدع المالقة فى حلى مملكة مالقة.

---

(١) المصدر نفسه.

ثم قسم كل واحدة من هذه الممالك تبعا لما تشتمل عليه من كور. فقسم الأولى مثلا إلى ما يلى:

كتاب الحلة الذهبية فى حلى الكورة القرطبية.

ـ كتاب الدرة المصونة فى حلى كورة بلكونة.

ـ كتاب محادثة السير فى حلى كورة القصير.

ـ كتاب الوشى المصور فى حلى كورة المدور.

ـ كتاب نيل المراد فى حلى كورة مراد.

ـ كتاب المزنة فى حلى كورة كزنة.

ـ كتاب الدر النافق فى حلى كورة غافق.

ـ كتاب النغمة الأرجة فى حلى كورة استجة.

ـ كتاب الكواكب الدرية فى حلى كورة القبرية.

ـ كتاب رقة المحبة فى حلى كورة استبة.

ـ كتاب السوسانة فى حلى كورة اليسانة.

ثم قسم كل كورة تبعا لما تشتمل عليه من مدن مشهورة فاشتملت الكورة الأولى من الكور السابقة على الكتب التالية:

ـ كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة.

ـ كتاب الصبيحة الغراء فى حلى حضرة الزهراء.

ـ كتاب البدائع الباهرة فى حلى حضرة الزاهرة.

ـ كتاب الوردة فى حلى مدينة شقندة.

ـ كتبا الجرعى السيغة فى حلى قرية وزغة.

وعد المؤلف كل قاعدة لملكة عروسا لها، ورأى أن العروس الكاملة الزينة تحتاج إلى منصة وتاج وسلك وحلة وأهداب. أما المنصة فخصصها للمعلومات الجغرافية عن القاعدة والمنشآت. وأفرد التاج للمعلومات التاريخية بمن حكموها، والسلك لتراجم من له شعر من الوزراء والكتاب والقضاة والعلماء والشعراء، والحلة لتراجم من ليس له شعر من أعلام الفئات السابقة، والأهداب للوشاحين والزجالين وأصحاب النوادر.

وواضح أن المؤلف أقام جميع أقسام كتابه على أسس جغرافية بينة.

وألف شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (١٥٦٩ ـ ١٦٥٩) كتاب ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا. وقسمه إلى أربعة أقسام:

ـ القسم الأول في محاسن أهل الشام ونواحيها.

ـ القسم الثاني في محاسن العصريين من أهل المغرب وما والاها.

ـ القسم الثالث في مصر وأحوالها.

ـ القسم الرابع في ذكر الروم (بلاد الأتراك العثمانيين).

وقد خصص فصلا من القسم الثاني لمكة، وأكثر من الحديث عن تجاربه الشخصية في الكتاب، بخاصة في القسم الأخير الذي أضاف فيه عددا من المعارف أيضا.

وألف محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي (١٦٥١ ـ ١٦٩٩) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ذيلا على ريحانة الألبا، وبناه على ثمانية أبواب:

ـ الأول في محاسن شعراء دمشق ونواحيها.

ـ الثاني في نوادر أدباء حلب.

ـ الثالث في نوابغ بلغاء الروم.

- الرابع فى طرائف ظرفاء العراق والبحرين.

- الخامس فى لطائف لطفاء اليمن.

- السادس فى عجائب نبغاءُ الحجاز.

- السابع فى غرائب نبهاء مصر.

- الثامن فى تحائف أذكياء المغرب.

ولم يتبع المؤلف ترتيبا ما فى كتابه، غير أنه خصص فصلا لبعض البيوت العلمية فى قسم دمشق، مثل بيت حمزة وبيت العماد وبيت المحبى.

ونقد النقاد نفحة الريحانة وتجمعت لدى مؤلفه معارف جديدة فشرع فى تدوين ذيل لها. ولكن الأجل لم يمهله لينسق ما كتب. وعندما عثر عليه تلميذه محمد بن محمود السؤالاتى الحنفى العَثمانى، عنى به ونظمه وأضاف إليه.

واقتصر السؤالاتى فى التقسيم على ثلاثة فصول هى[1].

- الفصل الأول فى بلغاء دمشق الشام.

- الفصل الثانى فى بلغاء المدينة المنورة.

- الفصل الثالث فى نبهاء حلب الشهباء.

وتقتنى دار الكتب المصرية مخطوطة، محفوظة تحت رقم (١٢٨٠ أدب)، وعنوانها مختارات نفحة الريحان، ورشحة طلاء الحانة. وتتبع تبويب النفحة ولكن المخطوطة لم تشر إلى صاحب هذه المختارات ولا زمن تدوينها.

وألف السيد على صدر الدين المدنى بن أحمد نظام الدين الحسينى الحسنى المعروف بابن معصوم (١٧٠٧) كتاب سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر ترجم فيه لمعاصريه، وقسمه كما يلى:

---

(١) محمد أمين بن فضل الله بن محب الله المحبى، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ٦ ج (القاهرة : عيسى الحبى وشركاه، {د. ت})، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٧٠ أدب.

- القسم الأول فى محاسن أهل الحرمين الشريفين (مكة والمدينة).

- القسم الثانى فى محاسن أهل الشام ومصر ونواحيهما.

- القسم الثالث فى محاسن أهل اليمن.

- القسم الرابع فى محاسن أهل العجم والبحرين والعراق.

- القسم الخامس فى محاسن أهل المغرب.

وفصل فى القسم الأول تراجم مكة عن المدينة، غير أنه لم يفعل ذلك فى بقية الأقسام ولم يقصر حديثه على أبناء هذه الأقاليم بل تحدث عن نزلائها أيضًا، وإن أخّرهم إلى ختام الفصول.

وألف عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى (١٦٤١ - ١٧٣١) ذيل نفحة الريحانة.

وذكر المرادى فى سلك الدرر [1] أن سعيد بن محمد بن أحمد السمان الشافعى الدمشقى (١٧٠٦ - ١٧٥٩): " أراد تأليف كتاب يترجم به شعراء عصره... وارتحل للبلاد بقصد ذلك. وأراد أن يجعله كالنفحة للأمين المحبى، والريحانة للشهاب الخفاجى، والسلافة لابن معصوم المكى. فلم يتم له ذلك، وبقى فى المسودات، وانتثر وتبدد، والمنية عاقته عن نشر هذه الفوائد السنية".

ولكن عبد الفتاح محمد الحلو، ناشر نفحة الريحانة [2]، لاحظ أن المرادى نفسه يملأ كتابه سلك الدرر بالنقل عنه والرجوع إليه، ويذكر أسماء من نقل عنه فى تراجمهم، ثم قال[3]: " ولعل أول ما يلاحظ على هؤلاء المترجمين أنهم دمشقيون، فلعل السمان لم يمكّن إلا من تراجم أبناء بلدته، أو لعل هذا هو

---

(١) أبو الفضل محمد خليل بن أحمد المرادى، سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر، ج٢، ص ١٤٢.

(٢) المحبى، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ج ١، ص ٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١ ، ص ٣٥.

القسم الذى سلم من كتابه واعتمد عليه المرادى". وهذا هو ما حدا بروكلمان[1] إلى تسمية كتاب السمان تراجم أعيان دمشق، وقد ذكر له مخطوطات فى عدد من المكتبات.

وألف عصام الدين عثمان بن على بن مراد العمرى الموصلى الحنفى (١٧٢١ - ١٧٧٩) كتاب الروض النضر فى تراجم أدباء العصر.

نتبين من هذه الجولة أن الكتب التى ترجمت للأدباء على أساس جغرافى استمرت منذ القرن العاشر إلى الثامن عشر، وإذا كانت القائمة التى تتبعتها ينقصها بعض القرون، فإنى أظن أن ذلك راجع إلى ضياع الكتب التى ألفت فيها أو عدم شهرتها فلم أهتد إليها، ولا أظن أن هذه القرون خلت من هذا الصنف من التأليف. وكانت بعض القرون من الثراء بحيث أنتجت أربعة كتب مثل الثانى عشر والثامن عشر، غير أن، الكثير منها اقتصر على كتابين. ونلاحظ أن أربعة من المؤلفين أصدروا تتمات لمصنفاتهم، وأن بعض هذه المصنفات وجدت من يختصرها أو يختار منها.

ونتبين أن كل واحد من هؤلاء المؤلفين كان يترجم لمعاصريه، ويتحرى ألا يأتى بمن أتى به سابقه من الأعلام إلا إذا وجد بين يديه مادة وافرة عنه غير موجودة عنده أو خالفه فى بعض ما أورده عنه.

ونتبين أن الأساس الجغرافى لم يتطور وفق زمن التأليف بحيث يصير عند المتأخر أدق وأحكم منه عند المتقدم، بل بقى كما هو فى ملامحه العامة، يتسع ويضيق وتكثر عناصره وتضيق، تبعا لنظرة المؤلف، لا لاستفادته من قصور سابق وسعيه هو إلى الكمال. ولذلك نرى أكثرهم يجمع فى الفصل الواحد بين الأقاليم المتعددة بل المتباعدة، وكثيرا ما لا يفرق بين أبناء إقليم وإقليم داخل الفصل الواحد. ونجدهم يجمعون بين أبناء الأقاليم والطارئين عليها، طالت مدد إقامتهم

---

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، الملحق ٢، ص ٤٠٤.

أو قصرت. ونجدهم يختلفون فى ترتيب الأقاليم فى كتبهم لا لسبب جغرافى، وإنما لأسباب شخصية.

ونتبين أن التقسيم الجغرافى يصل إلى قمة كماله عند المغاربة. أما ابن بسام فيمكن أن نعلل الأمر باقتصاره على الأندلس وحدها. وأما ابن سعيد فقد تناول فى كتابيه العالم الإسلامى كله، ووصل فى تصنيفه إلى كمال لم يصل إليه أحد قبله أو بعده.

وتبقى إشارة ضرورية إلى كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد بن محمد المقرى (١٦٣١)، فذلك الكتاب ينقسم إلى قسمين: أولهما عن الأندلس، وثانيهما عن الوزير الأديب. وظاهر التقسيم يوحى بأن المؤلف اتبع المنهج الذى يسلكه المؤلفون المحدثون عن الأدباء وإنتاجهم من آثار. ولكن المقرى لم يصرح بشىء من ذلك، وإنما أعلن أنه كتب أولا عن الأديب ثم رأى أن يكتب عن الأندلس، وأن يجمع ما كتب فى كتاب واحد. وغير بعيد أن يكون إحساس قريب من إحساس المحدثين هو الذى دفعه إلى هذا الجمع الذى نعدم نظيره فى التراث العربى.

اللغة العربية والعلوم الحديثة(*)

THE ARABIC LANGUAGE IN UNIVERSITY EDUCATION

Arabic: Mother tongue for more than 100 million people and sacred language for hundred millions of Muslims.

Colonization imposed foreign languages and medium of education in some Arab countries.

National, social and practical considerations for using Arabic as medium of education of science.

Some suggestions for overcoming certain obstacles:

a) Arabic scientific terms to be uniform in all Arab countries.

b) Translation of important reference books.

c) Issuing seientific periodicals in Arabic.

d) Encouraging the publication of scientific works in Arabic.

اللغة العربية إحدى اللغات العالمية، على أى مقياس اتخذه الإنسان. فإن أراد كثرة المتحدثين بها، فالعربية اللسان القومى لما يزيد على مئة مليون عربى، وهى اللسان المقدس لأضعاف ذلك العدد من المسلمين، يتخذون منه أداة لصلواتهم، وشعائرهم، والتوسع فى علوم دينهم.

وإن قاسها على التاريخ، وجدها قد رسخت قرابة ستة عشر قرنا نعرفها، وقرونا أخرى لا نعرفها. ووجدها أصدرت أدبا قيما، متعدد الأجناس الفنية، فسيح الأرجاء. وتصدر اليوم أدبا رائدا بين آداب العالم الثالث: ويبحث له عن مكان نهو جدير به بين آداب العالم المتقدم.

(*) مجلة اتحاد الجامعات العربية ـــ العدد الخامس ـــ مارس (آذار) ١٩٧٤.

ووجدها أصدرت ثقافة عالمية، نسلت عن الثقافات الإغريقية والفارسية والهندية، وأجرت على ما أخذت منها ما فرضته طبيعتها من نقد ونقض وتحوير وتوليد، وأضافت إليه التتمة التى سارت به فى طريق الكمال، والإبداع الذى أسبغ على كل ما وجد فيها الأصالة الجليلة، فتيسر لها أن تسهم فى إنتاج الثقافة العالمية الحديثة.

وإن بحث عن ثرائها اللغوى، تبين أنها تقتنى ثروة طائلة من الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية، وتضم نظاما متكاملا لا يختل فى الاشتقاق، ونظاما متطورا فى النحت، بحيث تضارع غيرها من اللغات الكبيرة.

وعلى الرغم من ذلك تنفرد العربية عن أخواتها من اللغات العالمية الحديثة فى مجال التعليم. فقد أخضع المستعمرون الأوروبيون أنظمة التعليم المدنى فى الأقطار العربية التى احتلوها أو سيطروا عليها لسلطتهم المباشرة. وفرضوا لغتهم أداة لتعليم التلميذ العربى، وقد أرادوا بذلك القضاء على الثقافة العربية، للتفرقة بين الأقطار العربية، الأمر الذى ييسر احتلال القطر منها بعد القطر، ويمكن المستعمر من توطيد دعائم نفوذه فيه، ولم تستطع البلاد العربية التخلص من هذه الخطة الغاشمة إلا بعد أن فطنت إلى سوء مغبتها، وكافحت من أجل مواجهتها ودحضها.

وناضل المخلصون ليصلوا بالنظام التعليمى إلى ثمرته الطبيعية، فأنشئوا التعليم الجامعى، لتخريج المثقفين، الذين يستطيعون الاطلاع على الثقافة العالمية، وتخير الصالح منها لمجتمعاتهم، وأخيرا المشاركة فى ركب الحضارة. ولكن هؤلاء المخلصين فوجئوا بخلو البلاد العربية من القادرين على إدارة هذه الجامعات، وإلقاء المحاضرات فيها، واضطروا إلى أمرين: استدعاء العلماء الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية أو لا يستطيعون التدريس بها، وإيفاد الطلبة العرب إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم فيها باللغات الأجنبية. وكلا الأمرين أدى إلى أن تبتعد اللغة العربية عن الجامعة، وتحل لغة أجنبية محلها.

وقد كانت هذه اللغة فى مصر والعراق والسودان الإنجليزية، وفى سورية ولبنان وتونس والجزائر والمغرب الفرنسية.

ولم تتحلل الأقطار العربية من قيد اللغة الأجنبية إلا بعد أن كثر أبناؤها الحاصلون على التعليم العالى، القادرون على التعليم بالعربية فعربت بعض الأقطار التعليم الجامعى كله، مثل سورية والمملكة العربية السعودية. وعربت بعضها أنواعا منه، وأبقت اللغة الأجنبية فى أنواع.

فاتفقت الجامعات العربية على صلاحية اللغة العربية للعلوم الإنسانية، وتفوقها فيها غير جامعة الخرطوم التى لازالت تسعى إلى تعريب العلوم الاجتماعية. وتوقف بعض الجامعات فى أنواع من العلوم وخاصة الجامعات المصرية. فأعلنت أن العربية تصلح لبعض أقسام الصيدلة وللمواد الطبية ذات التطبيق العلمى العام كالطب الشرعى والصحة العامة. وصرحت أن العربية لا تصلح الآن للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضيات وطبيعة ونبات وحيوان وغيرها، لقيام عدد من العوائق يحول دون استخدامها فيها، وحافظت على تدريس هذه المواد بالإنجليزية أو الفرنسية.

ونستطيع أن نصنف هذه العوائق فميا يلى:

١ ـ العوائق النابعة من اللغة العربية

فهذه اللغة لها طبيعتها الخاصة فى صرفها ونحوها، ولها قواعدها الكثيرة التى وضعها النحويون القدماء، وجمد من جاء بعدهم عليها. فعسرت على دارسيها من التلاميذ والطلبة. فنجد العربى يدرس القواعد اللغوية فى جميع مراحل دراسته، ولكنه ينتهى من هذه المراحل، وهو لا يحسن التحدث أو الكتابة بالعربية السليمة. فمدرس اللغة العربية يصب اهتمامه كله على حفظ الطالب للقواعد، لاعلى قدرة الطالب على التعبير الشفوى أو المدون، وهذه القدرة هى الهدف الحق من التعليم. ويجب أن تغير طرائق التعليم لتصل بالطالب فى يسر إلى هذا الهدف، مثل بقية دارسى اللغات المختلفة. فيتخفف

تعليم العربية من القواعد غير المستعملة، والظواهر الشكلية، والعلل الزائفة التى أتى بها المنطق الصورى، وتصطنع المناهج الحديثة فى تدريس اللغات.

ولا نتفرد العربية بما تتهم به من عسر، بل تشاركها فيه كثير من اللغات الأوربية بل ربما زادت عنها، مثل الألمانية والروسية. ولم يمنع ذلك من استخدام هذه اللغات فى العلوم، بل لقد بعثنا نحن من أبنائنا فى السنوات الأخيرة جماعات كبيرة للدراسة العلمية فى الاتحاد السوفيتى وألمانيا الشرقية خاصة. فاضطروا أن يتعلموا الروسية والألمانية ويتقنوهما ويتخذوهما لغتين لتخصصهم، ويبدو أن توفيقهم فى هذه اللغة كان أكبر من توفيقهم فى العربية: مما يوجب على محبى هذه اللغات وعلمائها أن يبحثوا عن أسباب نقص وسائل تعليم العربية ويتجنبوها، وعن أسباب الكمال فى وسائل تعليم تلك اللغات ويوفروها للغتهم.

كذلك جمد الخط العربى عند أنماط معينة تراعى فى كتابة الكلمات العربية، بغض النظر عن نطقها، مثل هذا والذى واللذان وأولئك وداود وغيرها. ثم يذهب الخط إلى النقيض من ذلك فيشتمل على عدد من الكلمات غير ثابتة الرسم مثل الكلمات المهموزة.

ولا تنفرد العربية بهذه المشكلة بل ربما بزتها الإنجليزية فيها. وعلى الرغم من ذلك، فالإصلاح يسير، ولا بد أن يقوم على تسجيل الكلمة حسب نطقها، وإعطاء كل حرف رسما واحدا لا يحيد عنه.

والعربية قيل إنها فقيرة فى المعاجم: المعاجم العامة التى تذهب بالباحث إلى ما يريد رأسا، وتقدم له التفسير الواضح للكلمة التى يبحث عنها، بل إن كثيرا من المفردات العربية ليس لها تفسير محدد، والمعاجم العلمية التى تفسر المصطلحات، وتعطى آخر كشوف العلوم وأحدث تطوراتها.

وإذا صح أى اتهام للعربية فلا يصح اتهامها بالفقر فى المعاجم اللغوية. فهى تشتمل على معاجم كثيرة متنوعة المناهج والأساليب، ربما لا تحتوى لغة أخرى على ما يماثلها.

فإذا كان المراد التفسير الدقيق الحديث للكلمات فإن ذلك لا يتأتى إلا باستخدام المفكرين لهذه الكلمات، ومنحهم المعانى المحددة لها. فإن لم يفعلوا، بقيت هذه الكلمات محتفظة بالرواسب القديمة، هلامية المعنى، ولم يستطع أصحاب المعاجم إلا أن يأتوا بها فى تفسيراتها المأثورة فى المعاجم القديمة. فمستوى اللغة وتطورها مرتبطان أوثق الارتباط بمستوى الأمة الثقافى وتطورها.

وإذا كان المراد الاعتداد بجميع حروف الكلمة فى الترتيب، وعدم التمييز بين ما يسمى بالزائد والأصلى منها، فذلك أمر يسير، أخذت به المعاجم الاصطلاحية والكشافات وما شابهها. أما المعاجم اللغوية فقد اختلفت، ولم يسر أكثرها على هذا الأسلوب، لأنه يفرق المادة اللغوية الواحدة ذات المعنى الأصلى الواحد فى مواضع متفرقة، مما لا يتلاءم مع لغة اشتقاقية كالعربية. وعلى الرغم من ذلك تحتاج المعاجم الحديثة إلى تخطيط جديد، يحدد فى وضوح الغرض من وضعها، والمفردات التى يقتضيها ذلك الغرض، والمناهج التى تيسر أخذ كل ما يريد القارئ أخذه فى أقصر وقت ممكن.

وإذا كان المراد معاجم المصطلحات فذلك أمر له موضعه الذى يناقش فيه مفصلا قريبا.

إلى جانب ذلك، يرمى المتنعون عن استخدام العربية من العلماء هذه اللغة بالقصور والتخلف نتيجة ما عانته فى عصور الجهل العثمانى الطويلة. ولم تستطع العربية التخلص من هذا القصور بمحاولة المشاركة فى العلوم، لأن تلك العلوم قطعت شوطا بعيدا فى الترقى، وهو شوط متزايد الاتساع.

وتجلى أثر ذلك فى فقر العربية فى المصطلحات العلمية الدقيقة والمتزايدة فى كل لحظة، وفى فقرها فى الثورة العلمية الحديثة مؤلفة ومترجمة.

وإذا كان علينا أن نتغلب على هذه العوائق، احتجنا إلى ما لا قبل لنا به من المال، والطويل العريض من الوقت الذى يجب أن ننجز فيه ما نريد فى أسرع ما نستطيع، وإلا ضاع ما أنفقنا هباء.

ولذلك يخشى هذا الفريق أن يعزل التدريس بالعربية أبناءها عن الاتصال بالعلوم المتقدمة، السريعة التطور، ويعود بهم إلى مراحل التخلف.

وكل ذلك حق. لكن أنصار اللغة العربية يعلنون أن هذه القضية ليست من شأن مصر وحدها ولا أية دولة عربية منفردة، بل يجب أن تتضافر جهود الأمة العربية كلها من أجل التغلب عليها. فإذا ما تم ذلك تقاسمت الأقطار العربية الأعباء العلمية والمالية فلم يبهظ شيء منها كاهل واحدة منها، واستطاعت أن تصنف الجهود، وتوزعها على القادرين. فتخفف الحمل، وتختصر الوقت، وتوسع مجال العمل. فيتحقق لها كل ما تريد، بتحقيق اللغة العلمية العربية. ولعل ذلك قريب التحقق الآن، بعد إنشاء جامعة الدول العربية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٢ ـ العوائق النابعة من القائمين بالتدريس

فقد مرنوا على استخدام اللغة الأجنبية دارسين ومدرسين. فصارت لسانهم وقلمهم، وبعدت الشقة بينهم وبين العربية، فغمضت أمامهم صورتها وتشوهت، وخاصة إذا أضفنا ما قام بينهم وبينها من حجب بسبب دراساتهم الابتدائية والإعدادية والثانوية، وما يسمعونه من زملائهم عنها، وما بثه المغرضون فينا عن صعوباتها ومشاكلها. ولذلك يخشى كثير منهم أن يقدم على استخدامها، فيحتاج إلى أن يبذل جهدا مضاعفا هو غنى عنه حين يستخدم اللغة الأجنبية.

وتلك قضية غير صحيحة، لأنها تقوم على تصور خاطئ. فمن عانى هذه التجربة أعلن أن صعوبتها فى الأسابيع الأولى، وسرعان ما تُخلى مكانها للنتائج الحسنة التى تبلغها، فتبعث الرضا فى نفوس القائمين بها.

وأود أن أضع الخلاف بين القائمين بتدريس المواد العلمية جانبا، وأن أبتعد بعض البعد عن المختلفين، الذين قد تغلب عليهم أهواء معينة أو تصورات زائفة أو قاصرة أو مبالغة، فتفرض عليهم مواقف تجافي الواقع الملموس، أو الواقع الذى نتطلع إليه ونسعى من أجل تحقيقه. أبتعد لأضع القضية فى العراء، بعيدة عن التطبيق والممارسة. ولن أعتمد فيما أدون على أوهام أو أمانى. ولن أتتبع أقوال من لا يدرك القضية أو يعى أصولها. لن أفعل ذلك لأننى أرتكز فيما اكتب على المؤتمر العام الذى عقده اتحاد الجامعات العربية فى فبراير/ شباط من سنة ١٩٧٣، والاستفتاء الذى اضطلع به المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى بالمغرب سنة ١٩٦٦، وأكثر الذين استطلعت آراؤهم من رجال الجامعات وخريجيها.

تتفق جميع الآراء على أن اللغة العربية هى الأداة الطبيعية للتعليم الجامعى، على اختلاف علومه، وأنه إذا كان قد عُدل عنها فى بعض العلوم فإنما ذلك لأجَل محتوم، ولأنها تفقد بعض الصفات التى يطالب بها أصحاب هذه العلوم. وعلى الرغم من ذلك، يقولون فى جلاء أن العربية لا بد أن تصير الأداة المحتومة.

ولا تتفق الأقوال على هذا الرأى اعتباطا، بل تتفق عليه لأن الاعتبارات كلها تلتقى عنده، سواء الاعتبارات القومية أو الاجتماعية أو العلمية.

الاعتبارات القومية:

اللغة أهم مظهر من مظاهر استقلال الشخصية القومية لأية مجموعة من البشر. والعربية هى المقوم الرئيسى للوجود العربى، وأقوى الروابط التى تجمع بين الأقطار العربية، والدعامة الوطيدة التى يعتمد عليها العرب فى الوحدة التى يسعون إليها.

فالإصرار على العربية إذن إصرار على إثبات الوجود العربى، وعلى تيسير الوحدة أو التضامن العربى. فإن لم تقم الوحدة السياسية بين الأقطار العربية فى

وقت قريب، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هى المسعى الضرورى، الذى يجب أن يكون قريبا. ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة العربية، واستخدامها فى كل مجال، لأن ذلك يؤدى إلى وحدة الشعور والفكر والاتجاه بين العرب، وتلك خطوة لازمة لمن سعى نحو الوحدة السياسية.

والتعليم باللغة القومية أمر طبيعى، تحرص عليه جميع الأمم مهما اتسع أو ضاق نطاق المتحدثين بلغتها القومية، لا يخرج على هذا الإجماع إلا أصحاب اللغات البدائية الفقيرة فى المفردات والمجردات من أمثال الافريقيين والغجر والاسكيمو، أو أصحاب اللغات المحلية التى بلغت من التشتت والتعدد ما جعلها متدابرة لا يربط بينها رابط، مما اضطر أهلها على استخدام لغة أجنبية عنهم كالهنود. واستخدام لغة بديلة عن اللغة القومية ضار بها، وبالمجتمع الذى يفعل ذلك. فمثل هذا الصنيع يعزل اللغة القومية عن مصادر الحياة والنماء، وقد يقتلها. ومثل هذا الصنيع يخلق فى المجتمع الواحد جماعات ذوات ثقافات مختلفة، فينضم أصحاب كل ثقافة بعضهم إلى بعض، وقد يخاصمون غيرهم، كما كنا نرى فى مجتمعنا العربى بين أصحاب الثقافة الفرنسية وأصحاب الثقافة الإنجليزية. وأمثال هذا التفرق والتخاصم ضارة بالمجتمع حين يساء تأويلهما واستعمالهما.

الاعتبارات الاجتماعية

الجامعات مؤسسات علمية " تختص بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعى، والبحث العلمى الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها فى سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية فى ذلك المساهمة فى رقى الفكر، وتقدم العلوم وتنمية القيم الإنسانية، وتزويد البلاد بالمتخصصين.. وإعداد الإنسان المزود بأصول المعرفة، وطرائق البحث المتقدمة، والقيم الرفيعة، ليساهم فى بناء وتدعيم المجتمع.." (قانون تنظيم الجامعات المصرية، الصادر فى سنة ١٩٧٢).

ولن تستطيع الجامعة خدمة المجتمع العربى إلا بالارتباط به، وتعرف حاجاته، ودراسة أسبابها، ومواجهتها. أما الفصل بين الجامعيين ومجتمعهم

فيؤدى إلى عواقب وخيمة، يؤدى إلى التمزق النفسى المدمر لحيرة الجامعيين إزاء الاختلاف بين القيم التى يتلقونها فى جامعاتهم والقيم التى يجدونها فى مجتمعهم، فإن نجوا من هذا التمزق وقعوا فى شبكة السخط على هذا المجتمع المتخلف، دون أن يدفعهم ذاك السخط إلى محاولة الارتقاء به. فإن برئوا من التمزق والسخط خشينا أن يقعوا فى وهم يوسوس لهم أنهم فئة ممتازة لا تماثل بقية أبناء مجتمعهم، فيترفعون عنهم، ويمزقون ما يربط بينهم من وشائج، تُبقى على المجتمع كله، وتترقى به.

والمجتمعات العربية الحديثة تسعى إلى تحقيق الديمقراطية السليمة لأبنائها، تلك الديمقراطية التى تقوم على إتاحة الفرص المتساوية أمام الجميع، وعدم حرمان أحد من حقوقه الدستورية بسبب المولد أو الدين أو الثروة أو ما إليها. وفى استخدام لغة غير اللغة القومية فى تعليم جامعى ما شبهة قَصْر له على القادرين على تلك اللغة، وهم قلة أتاح لهم غناهم أن يتلقوا تعليما ابتدائيا وإعداديا وثانويا خاصا، على حين لم يتح ذلك للجمهور الأعظم من أبناء الشعب.

أضف إلى ذلك أن استخدام العربية لغة للعلوم الحديثة يتيح للهواة والظامحين من غير رجال تلك العلوم أن يطلعوا عليها. فيتسع نطاق الثقافة العلمية فى المجتمع العربى، ويرسخ الميل إليها، وتعرف قيمها وقدراتها. فيقدم المجتمع لهذه العلوم رعايته وتشجيعه فى طواعية وسخاء، نظرا لارتفاع المستوى الثقافى للأمة كلها. ولا يسعى إلى هذا الهدف الدول النامية وحدها، بلَ الدول المتقدمة أيضا مما جعل كبار العلماء يصدرون الكتب المبسطة التى تتناول أرقى العلوم، وأدق المسائل، وأعوص القضايا. ولا يلجئون فى تلك الكتب إلى تبسيط المادة العلمية بل إلى تبسيط اللغة التى يعرضون بها تلك المادة. وأدى بهم إلى الوصول إلى ما أسموه اللغة الأساسية ، التى تقتصر على مفردات قليلة، وتتخفف من المصطلحات.

ويسر هذا الاستخدام لخريجى الجامعات العربية أن يقوموا بوظيفتهم الحقة التى يتطلع إليها مجتمعهم النامى. ييسر لهم أن يكونوا رواد حضارة متقدمة، يقدمون لأبناء أمتهم المعرفة الراقية، ويبينون لهم القيم الرفيعة، ويمثلون النماذج التى تستحق الاقتداء بها.

ويحثنا على هذا الاستخدام حاجة أخرى ملحة وسريعة لا بد أن نلبيها. فالمجتمع العربى يواجه فى العصر الحديث تحديا تكنولوجيا خطيرا، لا بد أن يكون كفؤا له. فوسائل البقاء والنماء والترقى كلها قد خضعت لتغيير كبير لا نغلو إذا سميناه انقلابا، إذ نبذت أدواتها القديمة واتخذت أدوات جديدة غاية فى الدقة والتعقيد. وصار العامل العادى عاجزاً أمامها، مهما بلغت مهارته. ولذلك صرنا فى حاجة إلى طبقة وسيطة تتلقى قدرا ما من العلوم المتقدمة، يجعلها قادرة على العمل بهذه الأدوات الحديثة، وعلى صيانتها وإصلاحها؛ طبقة وسيطة بين العامل (القديم) والمهندس أو التكنولوجى الجامعى ذى التعليم العالى. ولن تستطيع المجتمعات العربية إفراز هذه الطبقة إلا بتيسير العلوم الحديثة أمام أبنائها، والسبيل القومي والسهل إلى ذلك هو استخدام العربية فى تعليم هذه العلوم. وإلا كيف يتم التفاهم بين هذه الطبقة ومن تتعامل معهم من المهندسين، ومن أصحاب الأعمال؟

الاعتبارات العلمية:

التعليم عملية متصلة مترابطة الحلقات،لا ينفصل فيها التعليم الجامعى عن التعليم السابق عليه (العام) ولا عن التعليم التالى له (الدراسات العليا). ويقتضى هذا الاتصال وجود إطار للمناهج التعليمية بحيث تكمل مناهج كل مرحلة مناهج المرحلة التى تسبقها، وتعمل على الوصول بالطلبة إلى المستوى الذى تتطلبه الدراسة فى المرحلة التالية.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من العسير أن نغض النظر فى التعليم الجامعى عن التعليم العام. فقد رأينا المستعمر الأجنبى يفرض لغته على الطلاب العرب

فى تعليمهم العام. فلما نال العرب استقلالهم نظروا إلى هذه اللغات نظرتهم إلى بقية مظاهر الاستعمار وآثاره، وتخففوا منها ما استطاعوا فى التعليم الحكومى. أو أشرفوا عليها حتى لا تتجاوز حدا ما وضعوه أمامها، وخاصة أن أكثر طلاب هذه المدارس كانوا من أبناء الصفوة التى منحها مولدها أو مركزها المالى امتيازات لم يتمتع بها أبناء بقية الشعب، مما لا تبيحه الديمقراطية الحديثة، وكانت نتيجة ذلك كله، ضعف تعليم اللغات الأجنبية فى التعليم العام.

فإذا فرضنا على هذا الطالب أن يتلقى علومه بتلك اللغة، فرضنا عليه أن يواجه مشقتين: مشقة تحصيل المادة العلمية ووعيها، ومشقة فهم اللغة التى تلقى بها هذه المادة. أما إذا فرضنا عليه الدراسة باللغة العربية، فإننا نعفيه من إحدى المشقتين ونوفر له جهدا يمكن له أن يستخدمه فى التحصيل العلمى وحده.

وقد قام الدكتور عبد الملك عبد الرحمن أبو عوف بتجربة تستحق التسجيل فى هذا الصدد. فقد اضطر عندما انتدب إلى جامعة دمشق أن يدرس الكيمياء العضوية باللغة العربية. فاستطاع أن يفعل ذلك بعد أسابيع. ثم قارن بين عمله فى القاهرة وفى دمشق فى قوله: " وما أحب أن أركز عليه.. هو حسن النتائج التى أحرزها الطلاب بالنسبة لنتائج طلاب كلية الصيدلة بالقاهرة، وضخامة التحصيل، وحسن الاستيعاب الذى توصلوا إليه، لأن الطالب هناك كان يفهم دقائق الموضوع مما كان يتيح له فرصة استيعاب قدر أكبر من معلومات المادة المعطاة. فتفهُّم الطالب للغة المحاضرة والشرح كان يعفيه من بذل مجهود مضاعف ينصرف نصفه لفهم اللغة والتعرف على المفردات الصعبة فى اللغة الأجنبية التى يدرس بها، وذلك مهما تحرز المحاضر وتبسط؛ وينصرف النصف الآخر من الجهد لاستيعاب المادة نفسها. فضلا عما يعتور ذهن الطالب أحيانا من غموض فى المعنى أو نقص فيه يختل معه بناء المعلومات أو تنقل إليه بغير الصورة المقصودة من المحاضر، والمتفقة مع حقائق العلم الذى يدرسه الطالب " [1].

---

(١) الجامعات العربية والمجتمع العربى المعاصر ص ٤٠٦ موضوع المؤتمر العام الثانى لاتحاد الجامعات العربية.

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى قطع الصلة بين الأستاذ والطالب. فإن كثيرا من الطلبة يخشدون ألا يستطيعوا التعبير عما يريدون أمام أساتذتهم وزملائهم، فيمتنعون عن السؤال والمناقشة. ولو كانت العربية أداة التعليم ما وقع هذا.

ويزيد هذا الأمر سوءا الأعداد الغفيرة التى تمتلىء بها الجامعات العربية، وتجعل التفاهم بلغة أجنبية قريبا من المحال. فقد حُطمت كل العراقيل التى كانت تحول بين جماهير الطلاب والتعليم الجامعى. ولما كانت الإمكانيات المالية والعلمية للأقطار العربية لا تيسر لها الإكثار من الجامعات لتواجه هذه الأعداد المتزايدة المقبلة على التعليم الجامعى، اضطرت إلى تكديس الطلاب فى الأقسام، بحيث يتعذر التفاهم بغير اللغة القومية.

ويؤدى استخدام اللغة الأجنبية فى التعليم الجامعى إلى فصل هذا التعليم عن التعليم السابق عليه فصلا سيىء النتائج. فالطالب يدرس علومه كلها فى تعليمه العام باللغة العربية. فإذا ما انتقل إلى الجامعة كان عليه أن يعيد دراسة بعض هذا الذى درسه بلغة جديدة، مما يزيد أعباءه ويفقده ميزة الانتفاع بمعلوماته السابقة أو يعوقه عن الانتفاع بها.

وإذا تركنا الصلة بين التعليمين العام والجامعى، ونظرنا إلى لغة التعليم الجامعى فى ذاتها، غاضين النظر عن كل شىء خارج عنها، وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة تستحق الإمعان من الجانب العلمى والسياسى معا.

فالعلم ذاته لا ينحصر فى لغة معينة الآن، بل له لغات متعددة. ولغة التعليم الجامعى العربى لم تقتصر على لغة واحدة، بل اتخذت بعض الأقطار الإنجليزية لغة لها على حين اتخذت بعضها الأخرى الفرنسية. وفى بعض السنوات الأخيرة قررت الألمانية فى بعض المعاهد التكنولوجية.

وأدى هذا إلى نتائج لها خطرها. لم تستطع الأقطار التى اتخذت اللغة الإنجليزية لغة علمية الاستفادة من العلوم المزدهرة فى غيرها من اللغات، ولا

إرسال البعوث العلمية إلى غير البلاد المتحدثة بها، مما جعلها تابعة أو كالتابعة لإنجلترا وأمريكا، وكذا الحال مع بقية اللغات.

ولم تستطع الأقطار العربية أن تتابع البحث العلمى العربى، لأنه يصدر فى إحداها بلغة لا تحسنها الأخرى. ففقدت البلاد العربية بذلك أحد جوانب الوحدة الثقافية المبتغاة، والتيسيرات العلمية والمالية التى يتيحها التعاون العلمى بينها.

واللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة التى تجنب العلم العربى كل هذه المخاطر، وتكسب له كل التسهيلات. اللغة العربية هى التى تملأ الفجوة الفاصلة بين التفكير والتعبير عند من يحيون بالعربية ويتعلمون بغيرها، تلك الفجوة التى تبعث على الخلل والتأخر والتعطل وإضاعة الجهد. فإذا ما ردمت العربية الفجوات، مهدت الطرق إلى التفاهم السريع المتعمق المتسع، الذى يرتفع بالمستوى العلمى، ويسر الاستيعاب فالإبداع أمام العلماء العرب الذين خلصوا من القيود اللغوية، فانطلقوا فى الأجواء العلمية.

فذلك هو الذى دعا اليونسكو إلى التوصية بجعل اللغة القومية لغة التعليم فى مراحله كلها، ودعا الاتحاد السوفيتى إلى أن يرضى أن تكون اللغات المحلية لغة التعليم العالى عند كل قومية من القوميات التى يضمها، على الرغم من التعارض بين هذا الصنيع وبعض ما يدعو إليه من مبادئ.

وذلك أيضا الذى دعا واضعى قوانين الجامعات العربية على النص على العربية لغة للتعليم فيها، وإن كان هذا النص مؤجل التطبيق فى بعض الكليات استثناء.

ومهما يكن من شىء، يجب التأكيد أن كل من تناول هذه القضية، سواء اعتدل أو تطرف، طالب بالتدريس باللغة العربية أو بتأجيله، كل هؤلاء صرحوا فى جلاء أن استخدام اللغة العربية لا يعنى بالضرورة إهمال اللغة الأجنبية بل يقتضى النقيض، يقتضى العناية بها فى التعليم العام والجامعى. فلا بد لنا من

الانفتاح على العالم إلى أقصى درجات الانتفاح. ولن يكون هذا ممكنا أو تاما دون أن نتقن واحدة على الأقل من لغات العالم الرئيسية، تتيح لنا استمرار الاتصال بالتطور العلمي العالمي، ومتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية، والتمكن من إتمام الدراسة العليا، ونشر البحوث العلمية في المجلات العالمية. وربما أمكنت الإفادة من المتبع في بعض كليات الآداب في هذا الصدد. فقد قررت هذه الكليات تدريس بعض الموضوعات أو الكتب أو الفصول أو النصوص باللغة الأجنبية، إيمانا منها بحتمية اتصال الطالب بهذه اللغات والإفادة منها. وفي هذه الحالة لا يدرس الطلاب علما كاملا باللغة الأجنبية، فتنقطع الصلات بينهم وبين اللغة القومية. ويحسن أن تغير هذه الموضوعات المدروسة باللغات الأجنبية بين فترة وأخرى، ويستبدل بها غيرها.

ولعل أجمل ختام لهذه الدعوة ما قاله الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود، في مقاله الذي تناول فيه مشكلة الجمع بين الأصالة والمعاصرة لدى البلاد النامية. قال: " فإذا صببنا المضمون العلمي بمميزاته في وعاءين من عندنا كانت لنا النتيجة التي نريد. أما الوعاء الأول فهو اللغة. فانقل إلى اللغة العربية نتاج الفكر العصري كما هو يصبح هذا النتاج عربي القسمات والملامح. وأما الوعاء الثاني فهي قواعد السلوك من تشريع وعرف..." (الأهرام ١٢/ ٨/ ١٩٧٣)

° ° °

دعت الدواعي كلها إذن إلى إيجاد لغة علمية عربية، تتخذ أداة للتعليم والتأليف في العلوم الحديثة. أحس بذلك كل عربي غيور على عربيته وعروبته، واضطلعت هيئات علمية متعددة بجهود قيمة تلبية لهذا الاحساس.

وليس هذا موضع تناول هذه الجهود ولا تتبعها، فإن محاولة ذلك تحيد بنا عن طريقنا في هذا المقال، وتتشعب في مسالك عدة، أعتقد أن كثيرا منها يستحق مقالا منفردا. ولكنني لا أملك أن أغفلها كل الإغفال. ولذلك أعمد إلى الإشارة السريعة للتذكير.

من أجمل ما عثرت عليه المجلس الأعلى للعلوم، الذى أنشىء بعد الوحدة بين مصر وسورية فى الجمهورية العربية المتحدة. فقد وضع ذلك المجلس خطة رائعة لتعريب كتب العلوم الأساسية، التى جعل منها مجموعتين شملت أولهما ١٥ كتابا (١٤ كتابا منها مترجما، وكتابا واحدا مؤلفا) وثانيتهما ما يقرب من ذلك. واختار المجلس عددا من الكتب التى حازت شهرة عالمية، وكان لمؤلفيها مكانة بين العلماء. فترجمها جماعة من المختصين ترجمة قيمة، وطبعوها طباعة جميلة. والتزموا فيها أسسا، بعضها مرضى مثل الكشافات العربية والإنجليزية التى ألحقوها بكتبهم لتوضح ما استخدموه من مصطلحات، والاعتداد بالمصطلحات المتداولة، وإبقاء الأسماء اللاتينية للمعادن والحيوانات والنباتات وما إليها، وكتابتها بالحروف العربية، ووضع المقابل العربى معها، وبعضها يحتاج إلى إعادة نظر وتمحيص مثل الاحتفاظ بالرموز والمعادلات الأجنبية.

والمؤسف أن هذا المشروع وُئد مع موت الوحدة، فلم يصدر منه بعدها غير كتب قلائل ثم فقد. وكان الأمل أن يتطور ويترقى إلى أن يصل إلى الشكل المرضى.

ومن الأعمال الطيبة التى يجب الاهتمام بها الدوريات العلمية التى تصدرها الهيئات العلمية فى مختلف أنحاء العالم العربى كل فى اختصاصه. فقد أسهمت هذه الدوريات فى بسط مجال العلم، وتعريف منجزاته، وتعريب كثير من كشوفه، وترجمة كثير من اصطلاحاته. فكانت ولا تزال لها يد بيضاء فى سبيل ابتكار اللغة العربية العلمية.

ومن أهم الأعمال الجهود الهائلة المثمرة التى بذلها مجمع اللغة العربية بمصر والمكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط خاصة فى ترجمة مصطلحات العلوم المختلفة، تلك الجهود التى نالت نجاحا كبيرا فى الاختصاصات المختلفة، ووصلت إلى نتائج رائعة، ووضعت طرائق سليمة للعمل فى حقل المصطلحات.

ولكن هذه الجهود من التفرق والتباعد والجزئية بحيث تضيف إلى المشكلة الأصيلة مشاكل فرعية أخرى. ولو سارت الأقطار العربية في الطريق الذى سارت فيه إلى اليوم ما اقتربت من غايتها أكثر مما هى عليه الآن أو لاحتاجت إلى وقت طويل لتصل إلى ما تبتغيه.

فلن توجد اللغة العلمية العربية إلا على أسس من التخطيط، والتخصيص، والتوزيع، والتنسيق، والتوحيد.

لن توجد هذه اللغة إلا بمشاركة كل جماعة علمية، من الجامعات والمجامع العلمية واللغوية ومراكز البحوث واللجان والمؤتمرات والندوات والجماعات العلمية.

يجب أن يفرد كل عبء على حدة، ويوزع على المختصين القادرين على تحمله، في العالم العربى كله. ثم يجتمع هؤلاء المختصون المتفرقون لينسقوا ما وصلوا إليه إن لم يصلوا به إلى الوحدة التامة. ويمكن أن يتم هذا تحت إشراف الاتحاد العلمى العربى.

وأتصور الاتحاد العلمى العربى يسعى إلى انجاز ما يلى:

١ ـ وضع المصطلح العلمى العربى ورموز العناصر الكيميائية والوحدات المستعملة فى العلوم الرياضية والطبيعية.

فإن عدم وجود المصطلح العلمى العربى أكبر عائق يمتمد المتنمون عن استخدام اللغة العربية عليه. وهذا الاعتماد فاسد أصلا، لأنه يخلط بين المصطلح الذى هو وعاء واللغة التى هى أداة تفاهم. ولو تحدث المتحدث بالعربية ثم حشاها بالمصطلحات الأجنبية كلها لما أخرجه ذلك عن التحدث بالعربية.

وقد بذلت جهات متعددة وأفراد كثيرون جهودا جبارة لوضع مصطلحات عربية تقابل المصطلحات الأجنبية. وقد أخفقت بعض هذه الجهود، وأفلح

بعضها، غير أن المصطلحات التى وضعت اختلفت من قطر عربى إلى آخر، بل اختلفت فى القطر الواحد أحيانا. فلم تبق مشكلة المصطلح عند إيجاده بل أضيفت إليها مشكلة التوحيد بين المصطلحات المتنافرة أيضا.

ونستطيع أن نقول إن وضع المصطلح يجب أن يمر بالمراحل التالية، إن لم تفلح المرحلة الأولى جربت الثانية.

ـ التفتيش عن المقابل العربى الفصيح فى المعاجم اللغوية.

ـ التفتيش عن المقابل العربى الفصيح فى التراث العربى، ولو أهملته المعاجم.

ـ الالتجاء إلى المشتقات القياسية أو تضمين اللفظ القديم معنى جديدا أو النحت من كلمتين أو أكثر.

ـ التفتيش عن الألفاظ المولدة فى التراث العربى الصادر بعد عصور السلامة اللغوية.

ـ قبول الألفاظ العامية التى لا يوجد لها مقابل فصيح كما نرى عند أهل الصنائع.

ـ قبول بعض المصطلحات العلمية الأجنبية التى شاعت فى لغات العالم، كما فى علوم النبات والحيوان.

وألف مجمع اللغة العربية بمصر، الذى أراد أن يضمن السلامة والرضا للمصطلحات التى يضعها، ألف أن يضع المصطلح بين أيدى الجماعات التالية لتصقله:

ـ تضع المصطلح لجنة من مجموعة من اللغويين والخبراء بالعلم الذى ينتمى إليه المصطلح. ثم يناقش المصطلح أمام مؤتمر المجتمع الذى يضم ممثلين من الأقطار العربية الأخرى.

وربما ناقش المجتمع مصطلحاته أمام مؤتمر المجامع العربية الذى تم فى السنوات الأخيرة.

ولو حدث هذا، وأضيفت إليه نصيحة خبير اليونسكو أن توضع مصطلحات كل علم جملة معا، واستخدمت الوسائل الآلية السريعة فى المتابعة، لوفرنا وقتا وجهدا كبيرين.

ويتبقى علينا لاتمام الغرض أن تنشر هذه المصطلحات على نطاق واسع، فى مجالات المجامع اللغوية، والدوريات العلمية المختصة، وقوائم ترسل إلى الجماعات العلمية، وأخيرا فى معاجم خاصة بأحد العلوم وعامة لكل العلوم، ويسيرة فى الترتيب. ويحسن أن تصدر طبعات شعبية رخيصة من هذه القوائم والمعاجم تيسيرا لشيوعها، وأن تحافظ المجامع على صلة لا تنقطع بالهيئات العلمية، وخاصة فى حقل المصطلحات.

وآخر الخطى يجب أن يقوم بها العلماء أنفسهم. فقومتهم تفرض عليهم أن يتابعوا هذه المصطلحات، وأن يلتزموها فى أعمالهم، لأنها لن تحيا إلا بالاستعمال. وليتهم يذيلون كل واحد من كتبهم بقائمة تضم أهم المصطلحات فيه.

ويستطيع الاتحاد العلمى العربى أن يشرف على هذه الأعمال، وينسقها، ويقدمها للعلماء، بالمشاركة مع المجمع اللغوى. فتسهم اللجان العلمية مع اللجان اللغوية فى العمل معا.

٢ ـ ترجمة أمهات المراجع العلمية والبحوث الجديدة.

من العوائق الخطيرة التى تحول دون اتخاذ العربية لغة للعلوم الحديثة فقرها فى المراجع الهامة، والخوف أن تعزل العلماء عن الركب المتقدم فى سرعة هائلة لهذه العلوم.

وعلى الاتحاد العلمى العربى ان يتغلب على هذا العائق بأن يضع مشروعا واسعا للترجمة، يقوم على شقين: الشق الأول ترجمة المراجع، وأمهات الكتب التى يحتاج إليها العلماء وطلاب الدراسات العليا ومن يريدون الاتساع فى علومهم. والشق الثانى ترجمة البحوث الحديثة وخاصة تلك التى تحمل رأيا جديدا أو كشفا مبتكرا أو أحد الفتوح العلمية، لملاحقة التقدم العلمى فى اللغات الأكثر شيوعا على الأقل. ولما كانت البحوث التى تنشر فى أنحاء العالم تزيد على مئتى مليون بحث فى السنة، فى نحو أربعين لغة، كان على الاتحاد أن ينشىء شعبة أو ديوانا للترجمة، يشبه دار الحكمة التى أنشأها العباسيون فى العصر القديم، ومدرسة الألسن التى أنشأها محمد على فى بدايات عصرنا الحديث. وليس هذا الأمر بالغريب فى عصرنا الحاضر بل هو النظام الذى يعمل به كثير من أمم العالم الكبيرة والراقية كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى.

وغاية هذا الديوان جمع الكتب والبحوث الجديرة بالترجمة، وتوزيعها على الجماعات العلمية القطرية، والإشراف على الترجمة والطبع.

ويحسن اختيار المترجمين الأكفاء من كبار العلماء والمتخصصين، وتفريغهم للترجمة، ومنحهم المكافآت المجزية، واحتساب ترجماتهم عند ترقيتهم. ويحسن أن نفيد من النظام الذى وضعه محمد على للترجمة، فقد ألحق بكل مدرسة عالية تقوم بالترجمة جماعة دائمة من المصححين من شيوخ الأزهر. فصارت هذه الجماعة بعد زمن قليل على إلف بالعمل الذى تصححه، عارفة بمصطلحاته، قادرة على فهم لغته فهما تاما، ومن ثم على إصلاح هذه اللغة.

وإذن فديوان الترجمة يتيح للأقطار العربية ترجمة ما هى فى حاجة إليه، دون أن يتأخر عن وقت حاجتها، وأن يوزع عبء الترجمة على الأقطار كلها، وأن يجنبها تكرار الكتب المترجمة كما نرى فى الوقت الحاضر. فيحقق ما كان

المجلس الأعلى للعلوم فى الجمهورية العربية المتحدة يسعى إلى تحقيقه، بل يحقق أكثر مما كان هذا المجلس يسعى إليه، نظرا لاتساع مجاله، وشموله الأقطار العربية كلها أو معظمها.

٣ ـ تشجيع إصدار الدوريات العلمية:

ربما لا تستطيع الترجمة أن تلاحق السيل المتدفق فى كل مكان من الكتب والمقالات والبحوث ولذلك لجأت الدول المختلفة إلى إصدار المجلات والدوريات والنشرات الدورية، لسد الفجوة الزمنية بين صدور البحث فى لغته الأصلية وصدور الترجمة.

وتسعى هذه الدوريات إلى : ترجمة المقالات والبحوث الصغيرة التى يمكن إصدارها فى مجلة دون أن تجور على غيرها، ونشر خلاصة وافية للبحوث الطويلة، ونشر عرض واف معلق عليه للكتب الهامة.

ويمكن أن نضيف إليها فى دورياتنا المقالات والبحوث العربية، وخلاصات رسائل الماجستير والدكتوراه المقدمة فى الجامعات العربية، والمصطلحات المتفق عليها.

ويحسن أن يكون للاتحاد مندوبون علميون فى الدول المختلفة يتابعون الجهود العلمية، وينقلونها إلى البلاد العربية، لتناولها فى هذه الدوريات ملاحقة للتطور العلمى المستمر، ومتابعة لآخر ما تنتجه قرائح العلماء فى أنحاء العالم المتباعدة.

وتصدر الهيئات العلمية فى الأقطار العربية أمثال هذه الدوريات، لما يشبه الأعمال التى تحدثت عنها، وأقترح أن تتعاون الهيئات العلمية ذات الاختصاص الواحد فى الأقطار العربية كلها، فى ظل الاتحاد العلمى العربى، لإضفاء الشرعية العلمية على كل ما تقوم به هيئة على حدة، ومنحه الطابع العربي العام، وليلقى ترحيبا أكثر، وإقبالا أعظم وأوسع.

٤ ـ تشجيع نشر المؤلفات:

طبيعي بعد أن يقوم الاتحاد العلمي العربي بما وصفناه تشجيعا للعمل العربي، ووصلا له بالعلم الأجنبي، لبلوغ مرحلة الابتكار، طبيعي أن يرعى كل الجهود التي تسعى إلى ذلك، وعلى رأسها التأليف، والتأليف المبتكر خاصة.

وأفضل وسائل رعاية المؤلفات العلمية إنشاء مؤسسة عربية كبيرة لنشر المؤلفات (والمترجمات العلمية) التي يضطلع بها علماء جميع الأقطار العربية، وخاصة تلك التي لا يقبل عليها الناشر الفرد لقلة المكسب أو بطء التوزيع أو ما إلى ذلك مما يعوق تأليف أمثال تلك الكتب. وتخصيص المكافآت السخية للمؤلفات المبتكرة خاصة، ورصد الجوائز التشجيعية والتقديرية للبحوث القيمة.

إن قضية التعليم الجامعي، وقضية اللغة العربية، وقضية التعليم الجامعي كله باللغة العربية، من القضايا القومية ذات الأثر العظيم في المجتمع العربي كله. فلا يمكن أن تترك لعاجز أو كسول أو متهاون أو منعزل عن أمته، ولا أن تترك لمغامر أو مستهتر أو متعصب، ولا أن يحمل أعباءها قطر واحد أو أقطار متعددة، غير أنها متباعدة يعمل كل منها على حدة، وكيفما اتفق له.

إنها قضية تحتاج إلى استبانة الأهداف الحقة، والطرائق التي تؤدى إليها في غير تشعب و لاضلال.

هي في حاجة إلى التخطيط السليم، والتنسيق الشامل، والمنهج الدقيق، والتنفيذ الواعي الدءوب.

دراسة فى كتاب العين للخليل بن أحمد*

ينفرد العراق بامتلاك عدة نسخ من أقدم معجم لغوى أخرجه العرب، أعنى كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى، عالم البصرة وعبقريها ، المتوفى حوالى سنة ١٧٥ هجرية .

وكان هذا الكتاب مثار نزاع شديد منذ أن وقعت الأبصار عليه إلى يومنا هذا. فدفعنى ذلك إلى أن أحاول أن ألقى شيئا من الضوء على أقدم نسخة منه فى بغداد ، وهى النسخة التى تقتنيها مكتبة حجة الإسلام السيد حيسن الصدر، وفرغ منها كاتبها إبراهيم الأصفهانى فى " سنة أربع وخمسين بعد الألف". فربما استطاع ذلك أن يضىء بعض جنبات ما يثار حول الكتاب من مشاكل .

وتستهل النسخة بإيراد السند الذى وصل الكتاب عن طريقه . قيل: " قال أبو معاذ عبد الله بن عائذ: حدثنى الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل بجميع ما فى هذا الكتاب ".

ولم يستطع الباحثون أن يتعرفوا على أبى معاذ هذا. ومال برونلش[1] إلى أن الأسم محرف ،وصوابه: أبو معاذ عبد الجبار بن يزيد ، الذى ذكره السيوطى[2] بين رواة كتاب العين . وملت أنا - فى بحث سابق[3]- إلى أنه معروف بن حسان ، الذى روى عنه أحمد بن فارس[4] . وإلى اليوم لم نصل إلى يقين فيه .

---

* مجلة الآداب – بغداد – العدد العاشر – ١٩٦٧ .

(١) مجلة إسلاميات Islamica المجلد الثانى ص ٦٩ .

(٢) المزهر ١ / ٤٦ .

(٣) المعجم العربى ٢٠٣ .

(٤) المقاييس ١ : ٣٣ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ .

ويعنيني في هذا البحث أن السند قصير، لم يتعدّ راوية واحدا أخذ عنه الليث مباشرة. فالكتاب – بصورته الراهنة – يجب أن يكون قريب العهد بالليث، ولم تعبث الأيدى به .

لكننا ما إن نقرأ فى الكتاب حتى نتبين أن هذا الاستنتاج غير صحيح . فلا يضم الكتاب – فى صورته الراهنة – رواية واحدة، بل عدة روايات ، وإن شئت الدقة فى التعبير قلت يعتمد الكتاب الحالى على عدة نسخ سابقة عليه ، راجعها كاتبه . وسار فى ذلك على نهج قريب مما يسير عليه محققو المخطوطات فى أيامنا هذه .

فقد اختار من النسخ التى بين يديه واحدة ، جعلها الأم التى اعتمد عليها، والتزمها فى الكتاب ، غير مواضع قليلة خرج فيها عليها ، إذ لم يرضها ، وآثر ما فى غيرها عليها. ونبّه على ذلك ، فجعلنا نتعرف على عمله . قال فى مادة مدخ: " المدخ : العظمة " . رجل مديخ : أى عظيم عزيز . قال :

مُدَ خاء كلهمُ إذا ما نُوكِروا يُنفَى كما نفىَ الطَّلىُّ الأجربُ

وفى النسخة مُدْخاء كلهم " وقال فى مادة ثرم " ثرمتُ الرجل فثَرَم. وكان فى النسخة : أثرمْتُ ".

وقابل الكاتب "النسخة" التى اتخذها أساسا لعمله ببقية النسخ التى كانت عنده. ونبه على كل ما خرج من هذه المقابلة . وكان عندما يفرغ من إيراد ما أراد إيراده يعود إلى " النسخة "[1] .

وأكثر ما نبه عليه الروايات الأخرى فى الكلمة التى يريد أن يفسرها . فكانت هذه الروايات تزيد أحيانا على حروف الكلمة، قال فى مادة قفند : "

---

(١) انظر بزل .

القَفَنْذ : الشديد الرأس . وفى نسخة " القَفَنْذد". وانتقصت أحيانا من حروفها، قيل فى مادة زند " المُزنَّد : اللئيم ، ويقال الدَّعى ، ومنه المزنَّد . وفى نسخة : الزَّنْد : اللئيم . ومنه المزنَّد " [1]. وغيّرت ترتيبعض الحروف أحيانا ، قيل فى مادة نمسن : " نَمسنَ اللحم : تغير ، ونحوه مثله .. وفى نسخة : نشم اللحم: تَغير [2]". وغيرت الحروف أنفسها أحيانا أخرى ، قيل فى كنص : " الكِناص والكناصة من الإبل والحُمُر ونحوها : الشديد القوىّ على العمل . هذا الحرف فى نسخة بالباء فى بابه ". وكشفت فى بعض الأحيان عن خلط وقع بين المد والقصر، قيل فى مادة توى : " التواء – ممدود : ذهاب المال الذى لا يُرْجَى . وفى نسخة : التَّوَى، مقصور [3]" ؛ أو بين التذكير والتأنيث ، قيل فى مادة نول : " النَّوْل : اسم للقبلة . وفى نسخة : النولة "؛ أو بين الصيغ المختلفة من المادة الواحدة ، قيل فى ثبن : " ثَبَنْتُ ثبانا – وفى نسخة : تثبنت ثبانا: إذا جعلت شيئا فى الوعاء ثم حملته بين يديك ".

وأخذ من النسخ الأخرى فى بعض الأحيان روايات فى بعض مشتقات المادة التى يعالجها ، قال فى مادة جدر : " الجَدْر : ضرب من النبات ، الواحدة بالهاء ، ومن الشجر الدَّقّ ينبت فى القفاف الصِّلاب، فإذا طلعت رؤوسها فى أول الربيع يقال : أَجْدرت الشجرةُ، وأجدرت الأرض ، فهو جَدَر – وفى نسخة : مُجْدِر – حتى يطول فإذا طال تفرقت أسماؤه ". وقال فى مادة رمى : " الرَّمِىّ : قطع صغار من السحاب رقاق قدر الكفّ أو أكثر شيئا ، والجميع الأرماء . وفى نسخة " الأرمية " .

---

(١) وانظر قزع .

(٢) انظر باب اللفيف من حرف الذال ، واللام .

(٣) انظر برد .

ونقل من هذه النسخ فى أحيان أخرى تصحيحا لبعض الألفاظ الواردة فى تفسير المواد التى يعالجها ، قيل فى مادة رجب " الرَّجَبَة – والجميع الرِّجاب: وهو شىء من وصف الأدوية . وفى نسخة "الأردية " ، أو تصحيحا لبعض الأحكام، قيل فى مادة دكو : " الدُّكَوات : تِلالٌ خِلقةً، لا تُفرَد واحدتها . وفى نسخة : واحدتها دكاة مثل غَزاةٍ وغَزَوات ".

ونستنتج من الأقوال التى نثرها الكاتب أنه كان يقابل بين أكثر من نسختين. فعندما اقتصر الأمر على اثنتين منها أشار إليهما بصيغة التثنية ، وقال فى مادة سرهد : " سنام مُسَرْهَد – فى نسختن .. وهو المقطوع بعرض قطعا" وفى غير هذه الحالات ، أشار بصيغة الجمع، قال فى مادة حج : "الحِجَّة : شحمة الأذن" . قال لبيد:

يَرُضْنَ صعابَ الدُّرِّ فى كل حجة وإن لم تكن أعناقهن عواطلا

ويقال : الحجة ها هنا : الموسم . والدر – بالضم – كان فى النسخ كلها".

وعندما نجمع إشارات الكاتب نصل إلى أنه كان بين يديه ست نسخ – على الأقل – يردد نظره فيها، وينقل عنها . بل إنه يمنحنا أسماء أصحاب هذه النسخ ، وإن كان ذلك غير كبير الفائدة ، لأن هذه الأسماء مبهمة ، لم أستطع التعرف على أحد منها .

وأكثر الإشارات إلى النسخة التى نسبها إلى " الحاتمى " وخرج منها بفوائد شتى ، أهمها تصحيح الكلمة التى يريد أن يفسرها ، مثل قوله فى مادة عصب: " رجل مُعْصوصِب الخلق : كأنما لُوِى ليا .. وفى نسخة الحاتمى : رجل معصوب الخلق "، وقوله فى مادة شن : " الانشان : فى الغارة ، انشنوا الخيل غارة : أى بثّوا . وفى نسخة الحاتمى: أشّنُوا الخيل ، والإشنان فى

الغارة [1]" . ولم يصحح فى بعض الأحيان الكلمة المفسرة ، بل صحح كلمة وردت فى التفسير، مثل قوله فى مادة تغ : " التغتغة : فى حكاية الحبلى . وفى نسخة الحاتمى : حكاية الحُبْلى " وفى مادة قتر : " يقال : أغالبك إلى عشر أو أكثر ، فذلك القِتْر، تقول : كم جعلتم قتركم ؟ ويقال : هى القطنة التى يرمى بها الهدف . وفى نسخة الحاتمى : هى القصبة[2] ".

وأخذ منها أحيانا تفسيرا للكلمة يخالف التفسير الذى كان فى النسخة التى اعتمد عليها ، مثل قوله فى مادة شرى : " شرى السحابُ يَشْرَى شَرْيا : إذا كثُر. وفى نسخة الحاتمى : إذا تفرّق فى الغيم ".

وأورد فى المتن أحيانا تفسيرا صرفيا ، أخذه من نسخة الحاتمى دون أن يبين أكان هذا التفسير موجودا فى " النسخة الأم " وأخذه من الحاتمى لترجيحه صحته أم لم يكن موجودا . قيل فى مادة موت : " مَيِّت : فى الأصل مُوَيت ، وسَيِّد: سُوَيد ، فأُدغمت الواو فى الياء، وثقلت الياء ، هذا فى نسخة الحاتمى والزوزنى. وأما فى نسخة مطهر فإنه قال : كان فى الأصل : مَيْوِت، وسَيْوِد ، ويخفف فيقال : مَيْت ".

وأضاف إلى " نسخته الأم " أحيانا زيادات يبدو أنه لم يجدها إلا فى نسخة الحاتمى، فقد قال بعد أن فرغ من الهاء والكاف والراء : " باب الزيادة التى فى نسخة الحاتمى : هكر : الهَكْر : منتهى العجب ، قال أبو كبير :ه فاعجبْ لذلك فِعْلَ دهرٍه وَهكْران : غدير : قال حميد :ه بهكران فى مرجٍ كثيرٍ بصائرهٍ أى من يُبْصِره ".

---

(١) وانظر صمح ، وضغث ، وقربس وقليذم ، وثقل .

(٢) وانظر صلو .

ويتضح من مادة موت التى سبقت أن الكاتب كان فى بعض الأحيان يستبعد ما فى نسخته ويؤثر عليه ما فى نسخة الحاتمى، كما فعل أيضا فى مادة العين والقاف والزاء من الرباعى ، قال : " القَفَنْزعة : المرأة القصيرة جدا؛ هذا فى نسخة الحاتمى. وفى نسخة أخرى : القُنْزُعة : المرأة الصغيرة جدا ".

والنسخة التى تلى نسخة الحاتمى فى كثرة الإشارة إليها هى تلك التى نسبها إلى مطهر . وظهر لنا فى مادة موت التى سبق ذكرها أنه أخذ منها بعض التفسيرات الصرفية. ونتبين من بقية الإشارات أن أكثر استفادته منها كان فى تصحيح الكلمات التى يراد تفسيرها ، كما قيل فى مادة قصد : " المقتصد من الرجال : الذى ليس بقصير ولا جسيم ، ويستعمل فى غير الرجال . فى نسخة مطهر : مقصَّد من الرجال[1] ".

وأورد منها أحيانا تفسيرا يخالف ما عنده ، قيل فى مادة معص: " معِص الرجلُ مَعَصا فهو مَعِص ممتعص : وهو شبه الخجل . قال أبو ليلى: المَعَص : يكون فى الرِّجْل من كثرة المشى فى مفصل القدم . وفى نسخة مطهر : هو تكسير يجده الإنسان فى جسده من ركض أو غيره ".

وكل ما سبق أمور سبق أن رأينا ما يماثلها فى نسخة الحاتمى ، ولكن نسخة مطهر انفردت بإيراد بعض التصحيحات والروايات فى الشواهد الشعرية والنثرية . قيل فى مادة عنكب: " قال ذو الرمة :

هى اصطنعته نحوها وتعاونت على نسجها بين المثاب عناكبه

وفى نسخة مطهر : وحدها وتعاونت ، يقول : إما أن نسجها واحدة أو أعانها على نسجها عناكب ". وقيل فى مادة رثى : " المترثِّى: المتوجِّع الهجوم. قال الراجز :

---

(١) وانظر كنعد ، وأمه ، وسرهد ، وثفل ، وضغث .

حنين ثكلى فقدت حميما فهى ترثى بأبى وابنى ما

معناه : وابنى ، على الندبة . وما : ها هنا وجوب وتوكيد ، كما قال : أحببْ حبيبك هَوْنا ما كى ما يكون بغيضك يوما ما ، أى لا تحب حبك حبا شديدا ولكن أحببه هونا فعسى أن يكون بغيضك يوما . ويفسر (ما) ها هنا أى هكذا فافعل. وفى نسخة مطهر : عسى أن يكون . وكان فى نسخة أبى عبد الله: المُرثى ، بغير التاء ".

يلى ذلك نسخة أبى عبد الله ، التى لم يأخذ منها إلا ما أوردته من خلافات فى حقيقة الكلمة التى يراد تفسيرها: أعنى حروفها وضبطها ، وخلافات فى تفسيرها. وقد أوردت من مادة رثى مثالا للنوع الأول ، إذ أورد أبو عبد الله صيغة من الكلمة غير الواردة فى أصل الكتاب . وكذا فعل فى مادة أمه ، إذ قيل : " أَمْهَيْت السكين : سقيته الماء . قال امرؤ القيس :

راشّه من ريش ناهضةٍ ثم أمهاهُ على حجر

وفى نسخة أبى عبد الله ومطهر رحمهما الله : أمهت السكين ،ولم يأتيا بالبيت ". وأورد أحيانا ضبطا غير ما فى الأصل ، قيل فى مادة قنس : "القِنْس: أصل منبت كل شىء ومعتمده . قال العجاج " : فى قنس مجدٍ فوق كل قنسْ وفى نسخة أبى عبد الله : هو قَنْس ، بالفتح[1] ".

وأعنى بالخلافات فى التفسير خلافات لفظية تعدل عن بعض الألفاظ وتصحح بعضها الآخر . قيل فى مادة رق : " الرِّقّ : العبودة . وفى نسخة أبى عبد الله : الرق: المالك "، وفى مادة عرس : "

(١) وانظر قربس .

العرْسيّ : ضرب من الصبغ يشبه لون ابن عرس . وفى نسخة أبى عبد الله : الضُّبُع[٢] ".

وما وجدناه فى نسخة أبى عبد الله نجده فى نسخة الزوزنى غير أنها تزيد عنها بالإضافات التى أوردتها ولم تكن فى " النسخة الأصلية " للكاتب . فمثال تصحيح الزوزنى للكلمات التى يراد تفسيرها ما قيل فى مادة صمح : " صمَحَه الصيفُ : أى كاد يذيب دماغه من شدة الحر . وفى نسخة الزوزنى : ضَحَّمه الصيف . وفى نسخة الحاتمى : ولاتقول : صمحه الصيف، لأنه خطأ " وما قيل فى خم : " الخمخمة : ضرب من الأكل قبيح ، وبه سمى الخمام . وفى نسخة الزوزنى : الخمخام".

ومثال ما أخذه عنها فى مجال التفسير قوله فى مادة حبض : " حَبَض السهمُ : إذا لم يقع بالرميَة وقصر دونها فوقع وقعا شديدا .. وفى نسخة الزوزنى : إذا وقع بالرمية وقعا غير شديد ".

ومثال زياداته ما قيل فى المعتل من الفاء مع الراء : " الفيرة : حُلبة يطبخ حتى إذا فارت فوراتُها الغيث فى معصرة فصُنَّت ثم يُلقى عليه تمر ما تتحسَّاهُ المرأة النفساء. والفوارة : العين تجيش وتفور بمائها . وفى الكرسن فوارتان، فى باطنهما غُدّتان من كل ذى لحم، يقال : ماء الرجل يقع فى الكلية ثم فى الخصية ، وتلك الغدة لا تؤكل، وهى فى لُحيمة فى جوف لحم أحمر ،ولم يكن التشديد على الفوارة . كله فى نسخة الزوزنى[١] ".

وأشار الكاتب مرة واحدة إلى كل من نسختى أبى الوازع ، وابن خشفور . أما النسخة الأخيرة فذكرها فى صدد مادة غير موجودة فيها ، قال فى مادة ضغث: " الضَّغث : اللوك بالأنياب والنواجذ. لم يكن فى نسخة الحاتمى ،

---

(٢) وانظر لفت ، وتن .

(١) وانظر نثل .

وكان بالتاء، ولا فى نسخة ابن خشفور . ولعل مطهرا غلط فحوّله من الحاشية إلى غير موضعه".

وأما نسخة أبى الوازع فيبدو أنها لم تكن فى متناول يد الكاتب فى كل الأحوال ، أو كان اطلع عليها وأخذ منها بعض الفوائد التى كتبها على إحدى نسخه أو فى بعض أوراقه. وعندما أراد تدوين نسخته الأخيرة كان يردد النظر فيما دوّنه ولا يَستطيع الرجوع إلى نسخة أبى الوازع نفسها ، ولذلك لم يكثر من الإشارة إليها ، وعندما فعل صرح بأنه يعتمد على الظن. قال فى مادة قليذم: " القَلَيْذم: البئر الكثيرة الماء . وفى نسخة الحاتمى : القلندم . وأظنه فى نسخة أبى الوازع ، رحمهما الله".

ويمكن أن نستنتج مما قاله الكاتب فى ضغث أن مطهرا لم يرو كتاب العين عن شيخ، وإنما عثر على نسخة منه، فدوّن عليها التعليقات التى أفاد الكاتب منها . وذلك هو الذى جعله يخلط بين التاء والثاء ، ولا يفطن إلى موضع الكلمة التى رآها فى " الحاشية ".

ونخرج من هذا بأنه من المحال أن يكون هذه النسخة من كتاب العين قرْيبة العهد بالليث بن المظفر، وبأن أبا معاذ المذكور فى أولها ليس آخر رواتها، بل أخذ كثيرون عنه إما مباشرة وإما عن نسخته، وصنع كثيرون منهم نسخا لأنفسهم بينها بعض الاختلاف والتفاوت . ثم جاء كاتب هذه النسخة – الذى لم يخلف لنا اسمه – وجمع ما استطاع من النسخ ، واعتمد عليها فى إخراج نسخته التى ندرسها .

وهنا يرد إلى الخاطر سؤال ملح : هل اكتفى هؤلاء الرواة بالرواية والتعليق أو أجروا على النسخة أشياء أخرى ربما لا نستطع أن نتنبه إليها .

أعتقد أن هذا السؤال تتعذر الإجابة عنه على وجه اليقين . ولكننا نعثر فى النسخة على مواضع أشار فيها الكاتب إلى بعض أصحاب هذه

النسخ دون أن يذكر نسخهم . وأكثر من فعل معه ذلك المكنى أبا عبد الله .

فقد أكثر من ذكره في صدد الاعتراض على التفسير الموجود بالنسخة الأصلية من الكتاب . قيل في مادة كشف : " الكَشوف : الناقة التي يضربها الفحل وهي حامل، وقد كشَفَت كشافا . قال أبو عبد الله : الكشوف : الناقة التي يحمل عليها الفحل عندما تنتج أو عندما تخدج [1]".

وذكره موضّحا للتفسير الأصلي. قيل في مادة عق : " قال أبو عبد الله : أصل العق الشق، وإليه يرجع عقوق الوالدين وهو قطيعتهما ، لأن القطع والشق واحد [2]".

واعترض أبو عبد الله أحيانا على بعض الصيغ. قيل في مادة بون : "البوان: من أعمدة الخباء عند الباب ، والجميع الأبونة والبواثن ، قال أبو عبد الله : الأبُونَة ، والجميع البُون ، ولا أعرف البواثن في الأبونة معا [3]" .

وفي كثير من الأحيان كان أبو عبد الله يضيف صيغا وتفاسير جديدة إلى ما في الأصل . قيل في مادة عفر: " قال أبو عبد الله : يقال : إن المعفَّر المفطوم شيئا بعد شيء، يُحبَس عنه اللبن للوقت الذي كان يرضع شيئا ثم يعاد بالرضاع ثم يزاد تأخيرا عن الوقت ، فلا تزال أمه به حتى يصبر عن الرضاع فتفطمه فطاما تاما [4]".

---

(١) وانظر مزر ، واللفيف من النون .

(٢) وانظر علط ،وبغث ، وزنم ،ومسب .

(٣) وانظر نصع .

(١) وانظر عوج ، وبزل ، والمعتل من الزاء مع الميم .

وعلّق فى بعض الأحيان على الشواهد الشعرية بالشرح أو التعليل النحوى لما فيها من ظواهر شاذة. قيل فى مادة سر : " قال :

بزجاجةٍ صفراء ذات أسرةٍ قرنت بأزهر فى الشمال مفدم

قال أبو عبد الله : يجوز أن تكون الأسرة فى الشراب ، ويجوز أن تكون فى الزجاجة " وفى المعتل من الخاء مع الظاء تعليقا على قوله :

لمها متنتان خضّاتا كما أكبّ على ساعد النمر

قيل : " لما وجدوا إلى حركة تاء المؤنث سبيلا أقاموا الحرف قبله ،وكان القياس أن يترك ".

وشارك الزوزنى أبا عبد الله فى بعض هذه الأمور . فقد نقل عنه الكاتب ما أراد فيه أن يوضح التفسير أو يؤكده ، قيل فى سهر : " الساهور : من أسماء القمر. قال الزوزنى رحمة الله عليه :

كما الساهور يَخْفَى منه نورٌ إلى متكامِل البدرِ السنىّ

قال : هو القمر على ليل تمامه[٢]".

ونقل عنه اعتراضا على الصيغة الواردة فى الكتاب. قيل فى تبل: "تَوْبلتُ القدر توبلة : جعلت فيه التوابل .. قال الزوزنى: عن الثقة: تَبَّلت[٣] ".

كذلك نسب إليه زيادات فى الصيغ والتفاسير. قيل فى شقذ : " وقال الزوزنى : أشقذتُ الرجل : أى طردته. وشَقَذ هو : أى ذهب . وهو الشقذان. وأنشد : ٥ إذا غضبوا علىّ وأشقذونى٥[١] " .

---

(٢) وانظر عقل.

(٣) وانظر المعتل من السين مع النون .

وكل هذه الأمور التى نسبها الكاتب إلى أبى عبد الله والزوزنى وجدنا أمثلة لها مأخوذة من نسختهما، ومن نسخ غيرهما من الرواة. فغير بعيد أن يكون الكاتب نقلها من النسختين ، وأن إشاراته إلى الرجلين عنى بها النسختين ، وخاصة أنه لم يصرح أنه يروى عنهما رأسا أو يأخذ عنهما مشافهة .

ولما كان الكاتب أشار إلى أصحاب النسخ التى اعتمد عليها بأن ذكر ألقابهم أحيانا ، وكناهم أحيانا ، فقد خشيت أن يكون بعض هذه الكنى والألقاب لشخص واحد.

وقد استطعت من الطريقة التى اتبعها الكاتب أن أطمئن إلى أن الحاتمى غير مطهر ، والزوزنى [٢]، وأبى عبد الله[٣]، وأبى الوازع [٤]، وابن خشفور [٥]، وإلى أن مطهرا غير أبى عبد الله [٦]، وابن خشفور . وبقى أمامى احتمال أن يكون مطهر هو المكنى أبا الوازع ، إذ لم يردا معا ، واحتمال أن يكون الزوزنى صاحب أية كنية مذكورة فى الكتاب .

أما أصحاب الكنى جميعا فلم أستطع التعرف عليهم. وقام بهذه المحاولة جماعة قبلى فلم يوفقوا ، كما رأينا فى أبى معاذ، بل إنى أشك فى تحريف بعض هذه الكنى ، وخاصة ابن خشفور ، التى لم أقع على مثيل لها قبلا . وكذا الأمر بالنسبة إلى مطهر ، إذ لم أر أحدا من الذين أرخوا للغويين ذكر واحدا منهم بهذا الاسم .

---

(١) وانظر اللفيف من الفاء .

(٢) انظر موت ، ثقل ، صمح .

(٣) انظر قربس.

(٤) انظر قليذم .

(٥) انظر ضغث .

(٦) انظر رثى ، أمه .

وبقى الزوزونى والحاتمى . وأولهما منسوب إلى زوزون ، وهى كورة واسعة بين نيسابور وهراة ، والثانى إلى حاتم اسم رجل ، ويمكن أن تنطبق هاتان النسبتان على كثيرين .

ولكن تبادر إلى ذهنى أن الزوزونى هو أبو عبد الله الحسين بن على الحسينى، شارح المعلقات ، والمتوفى فى سنة ٤٨٦ هـ. فإن هذا يحل مسألتين: أولهما خاصة بالكنية ، والثانية باللقب، إذ يكون الملقب الزوزنى هو المكنى أبا عبد الله ، ويكون كاتب العين أراد بهما رجلا واحدا، أشار إليه أحيانا باسمه وأحيانا بلقبه .

ويدعم هذا الرأى أن ما نسبه الكاتب إلى أبى عد الله قريب مما نسبه إلى الزوزنى، وأن الزوزنى المشهور له مشاركة فى اللغة إذ ألف كتاب المصادر ، وترجمان القرآن ، وشرح بائية ذى الرمة ، إلى جانب المعلقات .

ولكن الرجل لا يعرف كثيرا من حياته . ولذلك يبقى هذا الرأى مجرد احتمال . بل يضعف منه عندى أن الكتب المنسوبة إليه لاتدل على كبير جهد فى مشاركته اللغوية . فالمصادر والترجمان يعنيان بإيراد اللفظ ومقابله الفارسى، فهما للقارىء الفارسى. ولست فى حاجة إلى الحديث عن شرحه للمعلقات ، لكثرة الرجوع إليه لبساطته وقرب تناوله ، وذلك ما أريد بما قلت .

أضيف إلى ذلك أن هناك زوزنيا آخر ، هو أبو جعفر محمد بن إسحاق بن على القاضى البحائى ، المتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ ، اشتهر بنسخ الكتب . قال مترجمه عبد الغافر بن إسماعيل عنه[1] : أظهر النسخ بين الناس .. وكان ينسخ كتب الأدب بخط مقروء صحيح أحسن النسخ . ولقد رأيت نسخة من كتاب يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى فى خمس مجلدات بخطه المليح ، بيعت بثلاثين دينارا نيسابورية ،وكانت تساوى أكثر من ذلك . ولقد كتب نسخة من

---

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٤٠٩ .

غريب الحديث لأبى سليمان الخطابى ، وقرأها على جدى الشيخ عد الغافر بن محمد الفارسى قراءة سماع ، وعلى الحاكم الإمام أبى سعد بن دوست قراءة تصحيح وإتقان ، أقطع على الله تعالى أن لم يبق من ذلك الكتاب نسخة أبْيَن ولا أمْلح منها ..".

فهو رجل يشتغل بالنسخ ، ويخص بذلك كتب الأدب كاليتيمة واللغة كالغريب ، ثم يقرأ ما نسخ أو بعضه على العلماء . وكل ذلك يرجح كفته ، ويقرب بينه وبين الزوزنى المذكور فى العين ، ويجعل الزوزنى وأبا عبد الله رجلين لا واحدا .

ويبدو أنه لا صعوبة فى التعرف على الحاتمى، على الرغم من كثرة الذين يحملون هذا اللقب . فأشهرهم فى المجال اللغوى والأدبى هو أبو على محمد بن الحسن بن المظفر، المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، والذى عُرِف بنزاعه مع المتنبى . ولا يذكر أحد أنه نسخ كتاب العين أو اشتغل بالنسخ . ولكن كل من ترجم له ذكر عنايته باللغة .

فقد وصف هو نفسَه فى كتابه " الهلباجة فى صناعة الشعر [1]" : " ووزُنت فى مجلسه [يريد مجلس سيف الدولة] تكرمةً وإدناءً وتسوية فى الرتبة – ولم تُسفِر حَدّاى عن عذاريهما – بأبى على الفارسى ، وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة، وبأبى عد الله بن خالويه، وكان له السهم الفائز فى علوم العربية ، تصرفا فى أنواعه وتوسعا فى معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبى الطيب اللغوى ، وكان – كما قيل – حتف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا".

---

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٥٠٣ .

وادّعى أنه لما جادل المتنبى فى بعض شعره ، وعمد إلى ما فيه من أخطاء لغوية ، تفوّق عليه حتى اضطر المتنبى إلى الإقرار فأعلن : " يا هذا ، مسلمة إليك اللغة " . [٢] أضف إلى ذلك أن الحاتمى ألف كتابين فى العربية .

كل هذا يدل على فرط عناية الرجل باللغة ، وعلى إحساسه هو بالمكانة التى وصل إليها فيها ، وافتخاره بذلك ، إذ كان كل ما رويته من قوله . ولا يهمنى فيه مدى صدقه ، إذ أهميته عندى فى دلالته على اهتمام الرجل باللغة.

وأهم من ذلك كله أنه اعتمد على الخليل - صاحب العين - فى تحصيله اللغوى ، وروى عنه . قال فى مناظرته للمتنبى أيضا : " والقداس : الجمان ، حكى ذلك الخليل، واستشهد بقوله : " كنظم سلكه منقطع " . وقد أخذ هذا القول من كتاب العين، الذى قيل فيه : " القُداس : الجمان من فضة، قال: «كنظم قداس سلكه منقطع» يصف الدموع ". فالعبارة أوردها نصا، مع حذف قصير، مما يدل على أنه أخذها من العينَ ، الأمر الذى يرجح كون النسخة له.

فإذا صَحَ لنا هذا، كان الاستنتاج الطبيعى أن السند الموجود فى مقدمة النسخة غير صحيح ، أو غير تام . فإن أقدم نسخة عرفنا صاحبها من النسخ التى اعتمد عليها الكاتب هى نسخة الحاتمى، المتوفى فى ٣٨٨ هـ ، أى المعاصر لأحمد بن فارس اللغوى المشهور، المتوفى حوالى سنة ٣٩٥ هـ، فإذا عرفنا أن ابن فارس روى العين عن الليث، ففصل بينهما أربعة رواة [١]، وأن ابن درستويه المتوفى سنة

---

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٥٠٧ .

(١) المقاييس ١ : ٣.

٣٤٧ هـ وأبا العباس أحمد بن محمد المعروف بابن ولاد المتوفى في ٣٣٢ هـ رويا العين عن الليث ، ففصل بين كل واحد والليث ثلاثة رواة [٢]- إذا عرفنا هذا تبين لنا بصورة قاطعة - أنه من المحال أن يروى الحاتمي نسخته عن الليث فلا يفصل بينهما غير أبي معاذ المذكور في مفتتح النسخة ، وأنه لابد أن يكون بينهما أربعة رواة على الأقل . فالسند المذكور إذن مبتور بترا شوّه سند النسخة وجعل من المتعذر علينا التعرف على رجاله .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان من المحتم أن يفصل بين الزوزني - سواء كان أبا جعفر أو أبا عبد الله - نحو ستة رواة .

وإذا كان لنا أن نطمئن إلى كل ما قدمت ، كانت النتيجة التالية المحتمة : أن كاتب النسخة التي بين أيدينا من العين ، واعتمد فيها على النسخ التي أشار إليها ،لابد أنه كان يعيش في أواخر القرن الخامس أو ما بعده .

---

(٢) ابن الندم : الفهرست ٤٣ . السيوطي : المزهر ١ : ٤٦ . حسين نصار: المعجم العربي ٢٥٧ .

فائت تاج العروس

عرفت اللغة العربية المعاجم منذ القرن الهجرى الثانى ، أعنى الكتب التى تحاول أن تجمع اللغة كلها مثل العين للخليل بن أحمد، أو الكتب التى تحاول أن تجمع الكلمات التى تنتمى لموضوع معين مثل النبات للأصمعى، أو الكتب التى تحاول أن تجمع الكلمات من صنف معين مثل الأفعال لابن القطاع ، أو الكلمات التى تخضع لظاهرة معينة مثل يفعول للصغانى ،وما شابه ذلك .

وكان مما عرفت الكتب التى لا تتعدى الصفحات المعدودات مثل آخر الكتب التى ذكرتها ، والكتب التى اشتملت على عدد هائل من المجلدات. فقد ذكر الذاكرون أن أحمد بن أبان بن سيد الأندلسى "

صنف (العالم فى اللغة) ، مئة مجلد، مرتبا على الأجناس. بدأ فيه بالفلك ، وختم بالذرة ".

والأمر الذى يؤسف له أن كثيرا من المعاجم مفقودة. ولم يصل إلينا منها غير اسمها مثل الجامع لابن القزاز، أو وصل إلينا قطعة منها وفقدت بقيتها مثل البارع للقالى.

ولا يخفف من هذا الأسى إلا بقاء ما بقى من المعاجم، وعثورنا من وقت لآخر على معجم جديد، أو تحقيق ما كان ما يزال مخطوطا، وطبعه جزءا بعد جزء.

ولا نشك أن أكبر المعاجم التى طبعناها هو تاج العروس للزبيدى، يليه لسان العرب لابن منظور. ولا نشك أن التاج يحتوى على أكبر عدد يحتوى عليه معجم عربى من مفردات اللغة العربية دون استثناء ، ولكنها لم تشتمل على جميع مفرداتها بسبب المعاجم التى فقدت والكتب اللغوية التى لم يرجع إليها التاج ومصادره وتأخذ ما فيها.

والدليل اليقينى على ذلك المفردات التى استخرجها الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون من ديوان المفضليات وحده، وسمياها (الحروف التى لم تذكر فى المعاجم) . وألحقاها بها .

وفى أثناء تحقيقى الجزء الخامس من طبعة التاج التى تصدرها دولة الكويت، عثرت على مجموعة من المفردات التى لم يتحدث عنها الزبيدى فى موادها وإن كانت قد وردت عرضا فى مواد أخرى أو فى بعض المصادر اللغوية الأخرى. فرأيت أن أجمعها وأستدركها عليها . فكانت هذه القائمة التى بين أيدينا.

شمرج شمرج الرجل: إذا عمل عملا غير محكم (الجمهرة ٢ : ٣٢٣ : ٣)

أرض مشَمرجة : بعيدة . (الجمهرة ٢ : ٣٢٣ : ٣)

	شمرجت الثوب شمرجة: إذا باعدت بين غرزه في الخياطة . والمصدر شمرجة (وشِمراج)	(الجمهرة ٢ : ٣٢٣ : ٣)
شنج	شَنَّج : تقبّض	(الأساس : ٥٠٧ : ١)
صوج	الصاج : زعموا في بعض اللغات : الصلع.	(الجمهرة ٢ : ٢٢٥ : ٣)
طعج	الطَّعْج: الدَّفع. وأكثر ما يستعمل في الكناية عن النكاح ، يقال : طَعَجها يَطْعَجُها طَعْجا.	(الجمهرة٢ : ١٠٠ : ٢)
عرج	ويقال: عَرِّجوا بنا في هذا المكان: أي انزلوا بنا فيه.	(الجمهرة ٢ : ٨١)
	ومالي عليه عُرْجة (ولا مَعْرَجَة) [أي مقام]	(المقاييس ٤ : ٣٠٢)
عسلج	يقال: شاب عُسْلُج (وعُسْلوج): إذا كان ناعما.	(الجمهرة ٢ : ١٠٨ : ١)
	عُسْلوج. وهو الغصن الناعم (ينبت في الظل)	(الجمهرة ٣ : ٣٨٣ : ١)
عفضج	عِفْضِج..: وهو مثل الحِفْضِج، وهو الضخم العريض من الرجال القليل الغَناء.	(الجمهرة٣ : ٣٢٦ : ١ وانظر ٣ : ٣٢١ : ١/٣ : ٣٨٦ : ١)
عنج	قال ابن الأعرابي : عَنَجْت الدلو وأعْنَجْتُها	(المقاييس ٤ : ١٥٢)
	استقام عُنْجوج القوم: أي سَنَنُهم	(المقاييس ٤ : ١٥٢)
عوج	وسمعت كلاما فما عِجْتُ به. وكذلك شربت دواء فما عجت : أي ما انتفعت.	(الجمهرة ٢ : ١٠٥ : ٢)
	وما عُجْت من كلامه بشيء: أي ما باليت ولا انتفعت، وقد ذكر عجت في الياء.	(المحكم: عوج ٢ : ٢٠٤ / اللسان: عوج/ انظر التاج: عيج)
	والعاج : عظم الفيل (الواحدة عاجة)	(الصحاح واللسان: عوج)

عهج	قال الأصمعى : العوهج: المخططة العنق.	(المقاييس ٤ :١٦٧)
غلج	غلَج الحمارُ والفرس غَلْجا (وغلَجا) وغَلَجانا: إذا عدا عدوا شديدا.	(الجمهرة ٢ :١٠٦: ١)
غمج	ويقولون للرجل لا يستقيم خُلُقه: غَمِج .	(المقاييس ٤ :٣٩٢)
غنج	قال أبو بكر: سمعت عبد الرحمن بن أخى الأصمعى يقول: غَنَج بعيره، وغنجه ،وغيفه :إذا عطفه.	(الجمهرة ٣ :٤٥٥: ١)
غوج	وربما سموا كل لَيِّن: غَوْجا.	(المقاييس ٤ :٤٠١)
فحج	الفَحْج – بالتسكين : مِشْية الأَفْحَج.	(الصحاح واللسان :فحج)
فدج	شاةٌ مُفَوْدَجة : : ينتصب قرناها ويلتقى طرفاهما.	(المقاييس ٤ :٤٨٤/ انظر المجمل)
فرج	زعم الأخفش أنه يقال للقَصّار: التُّفْرِج، والجمع التفاريج.	(الجمهرة ٣ :٣١٤: ٢/ اللسان/ فرج)
نبج	النابجى: ضرب أسود من تمر البحرين.	(الجمهرة ٢ :٣٨٢: ١، ٣ :٣٠٦: ٢)
لجج	قوله: أنشده ابن الأعرابى: ه دَلْوُ عِراكٍ لَجَّ بى مَنِينُها ه فسّره فقال: لج بى: أى ابتُلِى بى. ويجوز عندى أن يريد ابتُليت أنابه، فقَلَب.	(اللسان)
لهج	لَهِجْت بالشىءِ أَلهَج لَهَجا (ولَهْجا): إذا غريت به.	(الجمهرة ٢ :١١٤)

ناج	النَّأْج والنَّئْج: السرعة .	(اللسان)
	ناج الأمر : أخَّره	(اللسان)
نفج	المِنْفَجة: القَوْس التى يندف بها القطن، ووتراها الكَسِل، وأنشد: ه وابغ له مِنْفَجةً وكَسِلاه	(الجمهرة٣: ٤٧٦: ٢)
نهج	النُّهيج: النُّهَج: الربو.	(اللسان: نهج – النهاية لابن الأثير: نهج)
	انْتَهَج الطريقَ : استبانه .	(الأساس : نهج)
	النَّهْج : الطريق الواضح . والجمع نُهوج (ونِهاج)	(الجمهرة)
هبج	هَبج وجهُ الرجلِ فهو هَبِج: انتفخ وتَقبَّض، قال ابن مقبل:	
	لا سافِرُ النَّىِّ مدخولٌ ولا هَبِجُ	(اللسان والجمهرة
	عارى العظامِ عليه الوَدْعُ منظومُ	١: ٢١٦)
	هَبجت الناقة هَبَجا: ورم ضرعها	(المقاييس ٦ : ٢٨)
ولج	الوَلوج : الموضع الذى يدخل منها .	(الجمهرة ٢: ١١٣)
هجج	الهَجَاج: من لا خير فيه من الناس.	(الجمهرة ٣: ٤٧٠: ١)
	التهجج : التوقف (وشاهد عليه)	(الجمهرة ٢: ٩٩: ١)
هدج	أَهْدَج الظَّليمُ : مشى فى ارتعاش.	(المقاييس ٦: ٤٤)
	هَوْدَجتِ الناقةُ : إذا ارتفع سنامها كأنه الهودج.	(المقاييس ٦: ٤٤)

هرج	هَرَج النومَ يَهْرِجُه: أكثره (وشاهد عليه)	(اللسان : هرج)
	الأرض المِهْراج: الحسنة النبات التف بعضه ببعض.	(المقاييس ٦: ٤٩)
هوج	أهْوَجَه: وجده أهوج .	(اللسان : هوج)
هيج	الهاجة : خرزة صغيرة تشد فى الأذن .	(الجمهرة ٢: ١١٩: ١)
يرج	التهذيب: اليارَجانُ: كأنه فارسى، وهو من حلى اليدين.	(اللسان : يرج)
أنح	أنَح (يأنَح) ويأنح : مثل يزْحَر سواء .	(المقاييس ١: ١٤٤)
بدح	ابتدحت الشيء: إذا ابتدأت به من تلقاء نفسك.	(المقاييس ١: ٢١٥)
تسح	التُّسْحَة: الحَرَد والغضب ، عن كراع . قال ابن سيده : ولا أحققها.	(اللسان: تسح / والمحكم)
ترح	أتْرَحه : أحزنه	(الأساس : ترح)
جبح	جُبوح : جمع جَبْح، وهى خلية العسل.	(اللسان)
جحح	الجَحَح: من قولهم : أجَحَّت السَّبُعةُ إجحاجا.	(الجمهرة ٣: ١٨٧: ١)
جنح	اجْتَنَحْتُه: أى أمَلْتُه، فَجَنحَ : أى مال.	(اللسان : جنح)
حرح	حَرِح الرجلُ : [أولع بالأحراح]	(اللسان: حرح)
دحح	رجل دِحْدِح: قصير غليظ البطن .	(اللسان : دحح)
ذبح	المَذْبَح : ما بين أصل الفُوق وبين الريش.	(اللسان : ذبح)
	الذُّبَح : نَوْر أحمر.	(اللسان : ذبح)
	وحيا الله هذه الذُّبَحة : أى هذه الطَّلْعة .	(اللسان : ذبح

		/الجمهرة ١ :٢١٧ ١)
	فُعَل يُجْمَع على فُعَلة مثل ذُبَح وذُبَحة، وهو نبت.	(الجمهرة ٣ :٥١١ :١)
رجح	ورجح الشيءُ على الشيءِ رجوحا (ورَجاحا)	(الجمهرة/ ٢ :٤٠٢ :١)
	ليل مُرْجَحِنّ: كأنه من كثرة ظلمته لا يتحركِ.	(الجمهرة ٣ :٤٠٢ :١/ الأساس: رجح)
	وارْجَحَنّ : مال ووقع بمرة .	(الأساس : رجح)
رزح	المِرْزَحة: الخشبة التى يُرفَع بها [الساقط من العنب].	(اللسان : رزح)
روح	المِرْوَح والمِرواح: الذى يُذرَّى به الطعامُ فى الريح	(اللسان : روح)
	أبوعبيد: إذا طال النبتُ قيل: قد تَروَّحتِ البقولُ فهى مُتروِّحة	(اللسان : روح)
	رَوِّح : صلى التراويح	(الأساس : روح)
	استروحْتُ إلى حديثه	(الأساس : روح)
زحح	مالى عنك مُتَزحْزَح	(الأساس : زحح)
سبح	سَبَّحت الله و (سَبَّحتُ له)	(الأساس: سبح)
سرح	سَرَّحت العبد: إذا أعتقته ، لغة يمانية	(الجمهرة : ٢ :١٣٢)
	قال أبو زيد : تقول العرب: أكلت لقمة فسبتتْ حلقى: أى قطعته ،وسرحته بالتخفيف والتثقيل، والتخفيف أجود.	(الجمهرة ٣ :٤٦٣ :١)
	سَرَّح الشاعر الشَّعْر، قال جرير:	
	ألم تَعْلَمْ مُسَرَّحِيَ القوافى ، فلاعِيًّابهن ولا اجتلابا	(الأساس : سرح)

سلطح	سُلْطوح: جبل أملس	(الجمهرة:٣: ٣٨٠: ١)
	سُلاطح : أرض واسعة وربما سمى الماء السائح على الأرض سلاطحا	(الجمهرة٣: ٣٩٢: ١)
شدح	الشَّوْدَح: السريعة [من النوق]	(المقاييس ٣: ٢٥٦)
صدح	صَدَح الطائر يصدح صدحا (وصُدُوحا) وصُداحا: إذا صوّت	(الجمهرة:٢: ١٢٣: ١)
صرح	تقول: جاء بنو تميم صَريحةً: إذا لم يخالطهم غيرُهم .	(الصحاح واللسان:صرح)
	الصَّرْح: الأرض الملْساء	(اللسان : صرح)
	رجل صريح وقومٌ (صَريح) وصُرَحاء أيضا، وهو أعلى اللغتين	(الجمهرة: ٢: ٤٢٨: ٣)
	الصُّراح: بيت العزة فى السماء .	(الجمهرة : ٢: ٤٠٧)
صردح	الصَّرْداح والصَّرْدَح : وهى الناقة الصلبة. وانظر صرطح فى اللسان .	(المقاييس ٣: ٣٥٠)
صفح	أبدى لى فلانٌ صفحته : إذا أمكنك من نفسه فى خصومة أو حرب.	(الجمهرة ٢: ٤٠٧)
	وأصفحت عن الأمر إصفاحا: إذا تركته ، مثل قولهم : أضربت عنه إضرابا	(الجمهرة)
صوح	الصوَّاح: عَرَق الخيل: ولانعرف له فعلا يتصرف.	(الجمهرة ٢: ١٦٦: ١)
ضحح	الضَّحْضَح والضَّحْضاح (والضُّحاضِح): وهو	(الجمهرة ١: ١٣٧: ٢)

الماء المترقرق على وجه الأرض.

طلح إبلٌ (طَلْحَى) وطَلاحَى: إذا إشتكت بطونها عن أكل الطَّلْح. (الجمهرة ١ : ١٣٧ : ٢)

طلفح الطَّلْفَح : وهو السمين . (المقاييس ٣ : ٤٥٧)

عرر رجل مِعرور : وقع العُرّ فى إبله . (العين ١ : ٩٧)

قال أبو زيد : يقال: أَعَرّ فلانٌ : إذا أصاب إبله العُرّ. (المقاييس ٤ : ٣٤)

العُرّة: الشدة فى الحرب، والاسم منه العِرار والعُرار (العين ١ : ٩٧)

فى مثلٍ : نَحِّ الجرباء عن العارّة: . قال : والجرباء: التى عَمّها الجرب. والعارة : التى قد بدأ فيها ذلك، فكأن رجلا أراد أن يبعد بإبله الجرباء عن العارّة، فقال صاحبه مبكّتا له بذلك، أى لِمَ يُنَحّيها وكلُّهَا أجرب. (المقاييس ٤ : ٣٣)

ويقال : ناقلة معرورة : قد مَسّت ضرعتها نجاسة فيفسُد لبنها. (المقاييس (٤ : ٣٣)

قال الفراء: العُرْعُرة: المعرفة من كل دابة . (المقاييس ٤ : ٣٦)

تقول : عَرْعَرت اللحم عن العظم وشرشرته بمعنى . قالوا :والعَرعرة : المعالجة للشيء بعجلة إذا كان الشيء يعسُر علاجُه. (المقاييس ٤ : ٣٨)

عسر عسرت الناقة بذنبها : إذا شالت به، فهى (الجمهرة ٢ : ٣٣١)

عاسر ومُعْسِر

عسرتُ الأمرَ وأعْسرتُه. (الجمهرة ٣ : ٢٣٨)

ناقة عاسر وعسير: وهي التي اعتُسرت فرُكبت ولما تُرَض (الجمهرة٣ : ٤٤٦)

ولكن الأزهري قال في التهذيب ٢ : ٨٢ : العسير : الناقة التي رُكبت قبل تذليلها، وأما العاسرة من النوق فهي التي إذا عَدَتْ رفعت ذنبها،وتفعل ذلك من نشاطها،والذئب يفعل ذلك .

العُسْرى: هي الشّمال ، وإنما سُمّيت عُسْرى لأنه يتعسر عليها ما يتيسير على اليمين، فأما تسميتهم إياها يُسْرى فيُرى أنه على طريقة التفاؤل، كما يقال للبيداء مفازة وكما يقال للديغ سليم.

(المقاييس ٤ : ٣٢٠)

عشر العُشَارِيُّ من النبات : ما بلغ طولُه أربعة أذرع. [أخشى أن تكون محرفة عن عشرة أذرع] (العين ١ : ٢٨٨)

عَشَّر الجزارُ خِيرةَ اللحم: إذا أخذ منه أطايبه. (الجمهرة ٢ : ٣٤٣)

أنشد : ه لا يخلصُ الدهر خليل عِشْراه عِشْرا: يعني المعاشرة ، يقول : من ذاق الضماد واعتاده لم يخلص معاشرة صديق أبدا. (الجمهرة ٣ : ٤٧٨)

عصر قال بعضهم: يعنى بالعَصَر جمع الإعصار : أى الغبار. (العين ١ : ٣٤٦)

[أخشى أن تكون الإعصار محرفة عن العصار]

بعير معصور : قد عَصَره السَّفَرُ عَتَنْزا. (العين ١ : ٣٤٧)

ويقال في قول القائل:

أعْشَى رأيتَ الرمحَ أو هو مبصرٌ لأستاهكمْ إذ تطرحون المعَاصِرا

إن المعاصر : العمائم . وقالوا : هى ثياب سود. والصحيح من ذلك أن المعاصر الدروع، مأخوذ من العَصْر، لأنه يُقْصَر بها. (المقاييس ٤ : ٣٤٥)

عضمر ناقة عَيْضَمُور: مُسِنَّة وفيها صلابة . (الجمهرة ٣ : ٤٠٣)

عفر عُفَارِية.. وهو الشعر النابت وسط الرأس الذى يَجْثَئِلّ إذا اقشعر الإنسان ، وأكثر ما يكون ذلك عند الفزع. (الجمهرة ٣ : ٤٠٤)

والعَفار: عفار الكلأ : ثلاث بقلات يبقين حتى ينصرم البقل قال: وهن السعدانة والحُلبة والقُطبة. (الجمهرة ٣ : ٤٧٨)

فأما ما رواه أبو عبيدة أن العَفْر : بذر الناس الحبوب، فيقولون : عَفَروا : أى بذروا، فيجوز أن يكون من هذا ، لأن ذلك يلقى فى التراب. (المقاييس ٤ : ٦٤)

وقال بعضهم : العُفُر : جمع العَفار من

الشجر الذى ذكرناه . وأنشدوا:

قد كان فى هاشمٍ فى بيتِ محضِهِم وأرى الزِّنا د إذا ما أصْلد العُفُر (المقاييس٤: ٦٥)

وعَفْر قِرْنه وعافَرَه فألزقه بالعَفَر: أى صارعه (الأساس ٢: ١٢٨)

وما هو إلا عِفريت من العفاريت، وقد استعفر. (الأساس ٢: ١٢٩)

عقر العَقّار: الذى يعنُف بالإبل لا يرفُق بها فى أقتابها فتُدبرها. (المقاييس٤: ٩١)

سرج مِعْقَر وعَقّار ومعقار. (المقاييس ٤: ٩٤)

عمر عَمِر الرجلُ بالكسر يَعْمَر عَمْرا وعُمْرا، على غير قياس لأن قياس مصدره التحريك. (الصحاح)

وتقول: بعمْرِك هل كان كذا ، (الأساس)

العُمْرة: طاعة الله عز وجل – التهذيب (اللسان)

يقال : اعتمر الرجل : إذا أهَلَّ بعمرته ، وذلك رفعه صوته بالتلبية للعمرة . (المقاييس: عمر: ٤: ١٤١)

عور عار الدابةُ يَعيرُ : إذا ضلّ (الجمهرة ٣: ٢٥١)

عهر ويقولون – وهو من المشكوك فيه – إن العاهر المسترخى الكسلان .

غبر تَغبَّرت المرأة الشيخَ : أخذتْ بقيةَ مائه . (المقاييس: غبر ٤: ٤٠٨)

غمر وقد غَمُر بالضم يَغْمُر غمارةً [من الغمر بمعنى الفر] (الصحاح : غمر)

الغَمْرة : حيرة الكفار (التهذيب)

المعروف فى الغامر : المعاش الذى أهله بخير . (التهذيب)

التغمر : أقل الشرب . (التهذيب)

فأر ويقال للحم المتن : فأر المتن ، ويزابيع المتن. (التهذيب١٥ : ٢٤٨)

فرر وقال غيره [غير المؤرج] : فَرير للواحد، وجمعه فُرار.. قال ابن الأعرابى : فرارُ جمع فُرارة ، وهى الخرفان (التهذيب)

أفَرَّ المُهْر : إذا دنا أن يُفَرَّ جَذَعا. (المقاييس٤ : ٤١٩)

فقر وقال الأزهرى : هى الفُقَر – بالضم أيضا : جمع فُقْرة ، وهى الأمر العظيم الشنيع – النهاية لابن الأثير ٣ : ٤٦٣. (واللسان)

وفيه : " عاد البراء بن مالك فى فقارة من أصحابه " أى فِقَر. (النهايى لابن الأثير ٣ : ٤٦٣)

الفقير: البئر العتيقة وجمعها فُقُر . (اللسان فقر)

الفَقار :ما وقع على أنف البعير الفقير من الجرير . (اللسان فقر)

قتر القَتَر: جمع القَتَرة، وهى الغَبَرة . (الصحاح واللسان: قتر)

قذر أقذرتُ الشيء: وجدته قذرا. (الأساس٢ : ٢٣٧ ،المقاييس ٥ : ٧٠)

قطر القِطارة والقِطار : أن تشد الإبل على نسق واحد، واحدا خلف واحد. (النهاية لابن الأثير واللسان).

قعر قصعة قَعْرى وقَعِرة : فيها ما يغطى قَعْرَها، والجمع قَعْرَى. (المحكم واللسان)

قفر قال ابن الأعرابى : نبتٌ قفْر : لا صَيُّورَ له فى البطن. قال وسئل أعرابى عن الوشيج،وهو اسم بقلة : فقال: قذر قفير: أى لا خير فيه. (التهذيب ٩:١٢١:١)

قفدر القَفَنْدر: الشيخ . والقَفَنْدر: اللئيم الفاحش. (المقاييس ٥:١١٦)

قمر قَمِر التَّمْر وأقمر: إذا ضربه البرد فذهبت حلاوته قبل أن ينضج. (المقاييس ٥:٢٥)

قور قَورت دارُه قَوَرا: اتسعت. (الأساس ٢:٢٨٣)

تَقَوَّر: تَقَوَّض. (الأساس ٢:٢٨٣)

وسائل الإعلام واللغة

أعتقد أنني لا أحيد عن الحق، عندما أزعم أن الإنسان المثقف- في العصر الحديث - لايعطى اللغة قدرها الذى تستحقه، على حن يفعل ذلك الإنسان العادي ، بل إنه يعطيها فوق هذا القدر .

ولو أن هذا الإنسان المثقف تأنى قليلا، وتأمل قليلا، لتبين – دون عون من أحد – الخطأ الذى هو واقع فيه . ولو أكثر التأنى والتأمل، تبين – دون شك – فداحة هذا الخطأ،فقد كان الإنسان البدائى يؤمن إيمانا لا يخالطه أدنى شك بأن الكلمة ومدلولها شىء واحد، و بالعبارة الشائعة: الاسم هو المسمى، ولا يمكن الفصل بينهما .

وكان هذا الإيمان أحد أركان السحر القديم .

وأعتقد أننى لا أبعد عن الحق، عندما أزعم أن هذا الإيمان مازال موجودا إلى اليوم .

يتجلى فى الصدود عن امتهان بعض الأسماء التى يحمل لها الإنسان مهابة خاصة ، بكثرة الاستعمال، فيلجأ إلى التكنية . فكما لجأ المصرى القديم بالتكنية عن الملك بالفرعون (برعو أى القصر الفخم)، والعثمانى عن السلطان فى العصور المتأخرة بالباب العالى ، لجأ المصرى – قبل الثورة – بالتكنية عن الملك بالسراية، وعن رئيس الجمهورية بعد الثورة بالسلطات والجهات المسئولة .

ويتجلى فى كراهة استخدام أسماء بعض الأمراض الخطيرة أو المستعصية كالطاعون والسرطان والإيدز والحميات ، والتعبير عنها بعبارات شتى ، مثل الداء الأسود ،والمرض الخبيث، والورم . (واللى ما يتسماش)، لأن القوم يعتقدون أن من يلفظ بأسماء هذه الأمراض يصاب لها .

ويتجلى فى تجنب التلفظ بالأسماء التى تخدش الحياء أو الأعراف الاجتماعية وما إليها . ولذلك نرى اللغة فى هذا الجانب – كثيرة التغير .

وكانت اللغة – ومازالت – وسيلة التواصل، وحيدة أحيانا ، ومقترنة بأعوان فى أحيان أخرى . لا أقصد التواصل بين أفراد المجتمع الحى الواحد، أو أفراد المجتمعات الحية المتقاربة والمتباعدة وحدهم ، بل أقصد أفراد

المجتمعات المتعاقبة منذ دب الإنسان على وجه الأرض وإلى اليوم ، بل وإلى الغد ، ولولاها لذهبت فى الظلمات الحالكة حضارات عظيمة أبدعها الإنسان .

وأقرب الأمثلة بالنسبة لنا نحن المصريين : الحضارة المصرية القديمة . فلولا نقوش حجر رشيد ، وماتبعه من حل طلاسم اللغة الهيروغليفية ، وما دونه الإغريق، ما كنا عرفنا إلا مجموعة من الخزعبلات الفجة التى دونها المؤرخون العرب وغيرهم عن فجر التاريخ المصرى .

ومن ثم يقول المفكرون من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا والمؤرخين ثم اللغويين : اللغة هى فكر الإنسان .

والإنسان منذ كان ، وحيث كان ، حريص كل الحرص على سلامة لغته، لأنها أداة التفاهم والتعارف . ونظرة سريعة إلى ما تقوم به الأم والإخوة لتقويم لسان الطفل الصغير تكفى للتدليل على ذلك .

ويرى علماء النفس أن ما يستقبله الإنسان عن طريق السمع أضعف بروزا وأقصر بقاء مما يستقبله عن طريق البصر. فإذا اجتمع للمستقبل السمع والبصر ضمن الكمال والوضوح وسهولة التذكر. ومن هنا جاءت أهمية التليفزيون والسينما فى إدراك الأشياء .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ما يدركه الإنسان عن غير وعى ودون قصد ، مثل كثير مما يسمعه فى الإذاعات والتليفزيونات، فى أثناء قيامه بأعماله، أن هذه المدركات تترسب فى الإدراك والوجدان . فإذا ما كثر ترديدها قوى وجودها فى اللاوعى ، وأمكن أن تتسرب إلى الألسنة والأقلام حتى لو كان صاحبها لا يريدها .

وإذا كان هذا تأثير وسائل الإعلام فينا نحن الكبار الذين يعرف كثيرون منا الصواب والخطأ، فإن تأثيرها فى الصغار أكثر وأفدح، لأنهم مازالوا فى طور التعرف على أسس اللغة .

ومن هنا كانت ضرورة حرص كل وسائل الإعلام على سلامة اللغة ، سلامة المفرد والمركب، نطقا وصيغة وقواعد وتركيبا فلا يضارعها أى مدرس فى نشر الصواب اللغوى أو الخطأ.

والأمثلة على ما تستطيع أن تفعل قريبة وحاسمة .

فقد استطاعت السينما والإذاعة ثم التليفزيون نشر لهجة القاهرة فى جميع أرجاء الوطن العربى ، فصار المصرى يستطيع أن يتفاهم بلهجته فى كل بلد عربى على وجه التقريب: وصارت هذه اللهجة تنعت بالمصرية ، وكأنه لا يوجد فى أنحاء مصر لهجات غيرها ، بل إن هذه اللهجات تعانى صراعا عنيفا تشنه لهجة القاهرة للقضاء عليها .

كذلك أشاعت الصحف والسينما والإذاعة والتليفزيون لغة وسطا سميت بالدارجة يتفاهم بها المتعلمون ،وكانت لغتهم قبلا العامية أو أقرب ما يكون إليها .

وأشاعت كلمات عربية خالصة فى مدلولات جديدة، فسرت على ألسنة العوام وأشباه العوام من أثر التكرار .

وطبيعى أن الخطأ عندما ينسل إليها سيجد الترحيب الذى وجده الصواب، كما نسمع الآن : الملفت للنظر، والمبهر للعين ، والمعاق وأشغل والمباع ، والبدْء.

والنتيجة المحتمة وجوب الحرص على سلامة اللغة : الفصيحة والدارجة، فى كل وسائل الإعلام.

لغتنا العربية *

من أعجب الأمور حال لغتنا معنا أو حالتنا مع لغتنا . نرتفع بها – أو بعضنا – إلى أعلى عليين . ونهوى بها – أو بعضنا – إلى أسفل سافلين.

---

* جريدة الأهرام – ١٩٨٥/٩/٨.

يغلو بها فريق من رجال ديننا فيغلفها بقداسة مطلقة ويزعم أنها لغة الجنة أو لغة الآخرة، فيجعلها لغة الإنسان الأول ، ولغة البشر فى زمنهم الأخير، أى يجعل منها لغة إلهية .

ويتوسط قوم منا فيرون أن القرآن - الذى نزل بها - منحها قداسة خالدة خلوده، وصيانة باقية ببقائه .

وزعم قوم أنها (الفصحى)، لا تدانيها فى عبقريتها لغة أخرى ، فهى أوسع اللغات مفردات، وأقدرها على تلبية الحاجات، وأحسنها استعدادا للإبداع الفكرى والفنى .

وفى الوقت نفسه نجد بيننا من يزعم أنها ليست لغتنا، وأننا نستخدم فى حديثنا لغة مختلفة عنها فى مفرداتها وتراكيبها وأصواتها، يجب أن نقر طائعين أو كارهين أنها لغتنا الحق، وأن نهجر اللغة الأخرى فى التدوين العلمى والأدبى لأنها لغة ميتة تخنق أنفاس أدبنا، وتشيع الموات فى جنباته.

ونجد بيننا من يزعم أنها لا تصلح لغة للعلم الحديث، ويستخدم لغة أجنبية لذلك العلم، فى الدرس والتدريس العاليين، ويعلن أن استخدام العربية لغة فى العلم يفصل بين من يستخدمها ومراكز العلم الراقى فى العالم الأجنبى الذى يستخدم الإنجليزية أو الفرنسية .. أو غيرهما من اللغات الأوربية، ودعاوى أخرى كثيرة .

ونجد بيننا من يظن إتقان العربية سمة من سمات التأخر الاجتماعى، وإتقان لغة من اللغات الأجنبية من سمات التقدم الحضارى. بل نجد بعض من مهنتهم الحديث تعوّج العربية على ألسنتهم دون أن يفطنوا، أو يعوجون بها عن عمد، كيلا يوصمون بالتخلف . ونجد بيننا الدكاكين والمتاجر تتحول أسماؤها على ألسنتنا إلى (بوتيكات)، والمقاهى إلى (كافيتريات)، وهى كلمة مأخوذة من الكلمة العربية، أو إلى (بوفيهات) ، وأمثال ذلك كثيرة .

ونجد بيننا من يتخذ من الفصحى ومن يقوم بتدريسها ومن يلتزم بها موضع سخرية وتهكم، يعرض ذلك فى مسارحنا وأجهزة إعلامنا وحفلاتنا. ١٠

ونجد كل ذلك والكثير من أمثاله دون أن نجد من ينتبه له أو يأبه به أو يستنكره، فإن فعل استنكر الناس فعله واستثقلوا دمه، استثقالهم لمن يطيل الحديث عن الأخطاء اللغوية فى مناقشة الرسائل الجامعية أو يعدها فى تقييم الامتحانات الدراسية .

الحق أننى لم أر أمة أخرى تفعل ذلك بأحد مقدساتها، إذ اللغة أحد مقومات الأمة، وأحد شعاراتها المقدسة .

إن الجامعات الأوربية - فيما قيل لى - لا تقبل مناقشة أية رسالة إذا تعدت أخطاؤها مستوى معينا، مهما كان تخصصها ، بعدا أو قربا عن المجال اللغوى ، ومهما كان مستوى إعدادها امتيازا أو جودة .

إن من المتع الكبرى أن تستمع إلى اللغة الإنجليزية ينطق بها المذيعون فى الإذاعة المسموعة أو المرئية أو أحد الممثلين أو الممثلات من الإنجليز على أحد المسارح أو فى إحدى السينمات. واستمع إلى (لغتنا الجميلة) على ألسنة مقدمات برامجنا ومقدميها !

قد صدر قانون أيام المد العربى ، فى العهد الناصرى يحرم إطلاق أسماء أجنبية على الدكاكين. ولكننا الآن ننظر إلى المتاجر الكبيرة والصغيرة بل أصغر الدكاكين تحمل ما شاءت من عناوين، وهى لا تشاء إلا الأجنبى عنا. فنرى العجب العجاب، وكأن الشارع المصرى متحف للأسماء الأجنبية لا يظهر بينها اسم عربى واحد وما أحق أمير شعرنا أن يقول :

حـــرام عـــلى بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

وقد جلست مرارا أمام التليفزيون الإيرانى – فى عهد الشاه الراحل – فلم أرهم يعرضون حلقة أجنبية دون أن يكونوا قد حولوا حوارها إلى حوار باللغة الإيرانية (دوبلاج). وكذا الأمر عند الأمم الأخرى غيرنا.

وإذا كان المجتمع المصرى لا يخجل من الخطأ اللغوى عندما يبين له، فإننى أقترح أن يمنح مجمع اللغة العربية سلطة تصحيح ذلك الخطأ، وأن تمنح إدارة الرخص أو ما يماثلها حق الاعتراض على العناوين الأجنبية بل أدعو إلى تغيير ما وضع فعلا، والعودة إلى ما نعرف من عناوين مأخوذة من بيئتنا العربية المصرية ومن ثقافتنا الإسلامية.

وإن فى القصة التالية ما يكشف مدى عدم مبالاتنا واستهتارنا بلغتنا.

اعتمد العلماء فى معرفة التاريخ الفرعونى فى أول الأمر على ما سطره الرحالة والمؤرخون الإغريق عنهم، فوصلت إلينا أسماء أوزيريس، وحوريس، وإيزيس ، وممفيس إلخ .

ولكننا حللنا طلاسم الخطين الهيروغليفى والديموتيقى وعرفنا حقيقة الأسماء المصرية . فتبين لنا أن الاسم الصحيح لأوزيريس هو أوزير، ولحورس هو حور ولايزيس هوايزا، ولممفيس هو منف. وعلى الرغم من ذلك التزم علماؤنا إلى اليوم الصور الإغريقية للأسماء وأهملوا الأسماء المصرية .

ولذلك العمل عيوب جمة. أهمها العيب القومى، عندما نطلق على أعلامنا أسماء غريبة عن أسمائهم الحقيقية. ويكفى أن أتساءل : هل يمكن أن نطلق على ابن سينا اسم أفيسينا، وعلى ابن رشد : اسم أفروس ، وعلى القاهرة: كايرو، كما يفعل الإنجليز فى هذه الأسماء. ولو فعلنا هل يمكن أن نتعرف على حقيقتها. أذكر أن أحد المنتسبين إلى العلم – عن غير حق – ترجم كتابا إنجليزيا عن القاهرة فلم يفطن إلى حقيقة الأسماء المذكورة فى الكتاب . فتحولت حلب عنده إلى ألبو، وعسقلان إلى اسكلون ، والغورى إلى الجورى، فصار الكتاب فضيحة اضطر معها المشرفون عليه إلى سحبه من الأسواق .

أضيف إلى ذلك الفصل بين الاسم الحقيقي وما تطور عنه أو ما يحتمل أنه تطور عنه. فربما كان حور على صلة ببنات الحور التى يتغنى بها أبناء الصعيد عند كسوف القمر. وربما كان رمزى على صلة باسم رامس أو رعمس، الذى حُوِّل فى اليونانية إلى رمسيس أو رعمسيس.. وأيزا على صلة بالعزّى فى جاهلية العرب .. إلخ لا يسعنى هنا إلا أن أناشد الأصدقاء من علماء الآثار المصرية أن يعطونا فى كتاباتهم الأسماء المصرية، فى صورتها المصرية، لأن هذا حقها وحقنا عليهم. وأن أناشد كل كاتب أن يعطينا الاسم المصرى ، فى صورته العربية الحق، وأن أناشد كل مصرى وعربى أن يرعى الله والوطن وكرامته الذاتية فى لغته، حتى تزول عنها وحشتها، وتمحى حيرتها وغرابتها.. وتعود اللغة القومية المحترمة على كل لسان ، وفى كل فكر، وعند كل فئة من فئات المجتمع المصرى والعربى .

تيسير اللغة

كثر الحديث فى العصر الحديث عن صعوبة اللغة العربية ، وحتمية تيسيرها. وفى هذا الصدد أقدم التوصيات الآتية :

اللغة السليمة :

يجب – قبل كل شيء – الاتفاق على اللغة التى نريد أن نستعملها ، وأن نحافظ عليها : أهى لغة العصر الذى سموه بعصر الاستشهاد ووصفوا لغته بالفصيحة

أم لغة أدباء العصر العباسى

أم لغة الأدباء الملتزمين من المحدثين بل المعاصرين؟

فما أكثر ما يخطِّىء بعضنا بعضا فى مدلول مفردات ، أو استعمال كلمات أجنبية شاعت أو كلمات يُظَن أنها عامية، أو مصاحبات غير ما كان عند القدماء، أو ما شابه ذلك .

ثم يجب أن يُعد التلفظ هو حَكَم الكتابة الأول بل الوحيد، وأن تطرح الاعتبارات الميتافزيقية وشبه المنطقية ، وأن يبت فى أمر الهمزة فلا تكتب إلا فى صورة واحدة . فنتخلص من الحروف الزائدة والناقصة معا.

النحو

تيسير النحو وحسن عرضه . وقد تم – فى هذا المجال – حذف نظرية العامل وبعض ما ينتج عنها ، والعلل الثوانى والثوالث . ويبقى :

- إدخال اجتهادات المجامع اللغوية العربية فى الكتب الدراسية.
- إهمال القواعد الافتراضية ، ونادرة الاستعمال، والتى مات استعمالها .
- عدم تسليط المنطق الصورى على الواقع اللغوى المخالف له، مما يجبر على التأويل والتعسف.
- الاعتراف بصحة أعراف غير قريش من القبائل ، إذا ما شاعت فى التراث والاستعمال الحديث، مثل لهجة (يتعاقبون فيكم ملائكة).

المناهج الدراسية

تبسيط المقررات واتباع الطرق الحديثة فى عرض التراثى منها كالنحو والبلاغة .

التخفف من متطلبات الحفظ.

اختيار الموضوعات التى تمس حياة الطلاب والتى تنبع من الحياة المعاصرة.

طرق التدريس

- حسن اختيار المدرسين. بحيث يتوفر فيهم حب مهنة التدريس ، وحب اللغة العربية ، وحب الطلاب، والقدرة على إنشاء علاقات طيبة تدفع إلى حب اللغة .
- تتبّع الجديد الصالح من طرق التدريس، لضمان تشوق الطلاب وإقبالهم.
- التزام جميع المدرسين – على اختلاف تخصصاتهم – التحدث بلغة سليمة ، لتعويض التلميذ عن المجتمع الذى كان من المفترض أن يأخذ لغته منه.
- تخصيص درجات– ولو رمزية – لسلامة اللغة فى كل الامتحانات .
- عقد الاختبارات الشفوية التى يلزم الطلاب فيها بأداء الحديث فى لغة سليمة .
- فرض إجراء الحوار اليومى بين أعضاء هيئة التدريس والتلاميذ بلغة سليمة .
- تخصيص درجات محددة من درجات أعمال السنة لمن يتحدث من التلاميذ بلغة سليمة .
- عقد الندوات والمحاضرات التى يستمع فيها الطلاب إلى اللغة السليمة، ويتحدثون بها مشاركين ومحاورين .

- توجيه الطلاب إلى الاستماع إلى من يحسن الحديث بلغة فصيحة فى أجهزة الإعلام، وإلى كبار قراء القرآن، وجعل هذا الاستماع من الهوايات المشجَّعة .

- العمل على رفع المكانة الاجتماعية لمدرسى اللغة العربية ، وإنشاء حوافز وامتيازات لهم، وتخفيف الأعباء عنهم.

التوعية الاجتماعية

من الأمور المهمة أيضا إجراء حملة توعية ، بل ربما احتاج الأمر إلى عدة حملات .

أولا: لتنقية صورة اللغة العربية والمحافظين عليها من التشوهات والشوائب التى لحقت بها، وجعلت كثيرا من أفراد المجتمع يتخذونها مادة للتندر حتى فى المحافل ووسائل الإعلام ، ولعدم الخلط بين المحافظة على اللغة وبين التقعر فيها والتشادق بها، الأمر الذى كان كريها حتى عند النحاة القدامى.

ثانيا : إبراز الصورة الحقيقية التى يجب أن تتجلى فيها لغة مثل العربية، ذات تراث حضارى شديد الخصوبة،ومتعدد الجوانب، وممتد الآماد، وكان له أثره الذى لا يمكن إنكاره فى مجرى الفكر الإنسانى وتطوره.

ثالثا : لإبراز أهمية اللغة الأم لدى الأمم التى نضج تفكيرها، وتعرف مقومات كيانها ، وتعتدّ بذاتها ، وتحرص على تبجيل أبنائها لهذه المقوّمات مهما بلغ مقدار رمزيتها .

فالمجتمع السليم هو الحَكَم الوحيد

الذى له الحق فى احتضان الصالح من كل شىء . فيضمن له الحياة والبقاء والتطور ، وله الحق فى طرح الفاسد والمشوه ، فيقدِّر له الفناء.

اللغة العربية فى عصر العولمة

العولمة أو الكوكبية شعار تردد على ألسنة البشر المتكلمين بشتى اللغات فى جميع أرجاء الأرض فى السنوات الأخيرة، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بخاصة.

وأحب أن أبسط الأمر على نفسى وقرائى ، فلا أخوض فى الكثير الذى قيل فى توضيح هذا الشعار، وأدلف مباشرة إلى تصورى الخاص له. ومعناه عندى إزالة الفواصل بين أقطار العالم لتصير الكرة الأرضية كلها قرية عالمية كما يقال، وعمدا ذكرت الفواصل مبهمة دون أى نعت .

فإذا عنينا بالفواصل الفواصل السياسية تذكرنا أن الرغبة فى إزالتها ليست من بنات القرن العشرين أو الحادى والعشرين، بل هى قديمة كل القدم، واستبدت بكثير من القادة والشعوب ، فوجَّهت أفكارهم وخطواتهم، وفى الصدارة منهم الإسكندر المقدونى، وقمبيز الفارسى، وجمهرة من أباطرة الرومان وخانات التتار، وانتهاء بهتلر الألمانى .

ولكن تحقيق الرغبة فى إزالة هذه الفواصل اعتمد قديما على القوة العسكرية الباطشة. أما فى العصر الحديث فيرتدى زى السلم، ويحتج بالاتفاقات المتعددة التى فرضتها هيئة الأمم المتحدة. ومع ذلك لا يخلو الأمر من القسر. وأقرب الأمثلة أمامى - وأنا أكتب هذا المقال - ما يحدث فى القطر الأوروبى النمسا. فقد فاز حزب الحرية اليمينى فى انتخابات لم يتهم أحد نزاهتها وتعبيرها عن ميول الشعب النمساوى، وحصل على عدد من الأصوات يجعل من حقه الديمقراطى أن يؤلف الوزارة منفردا أو مؤتلفا مع غيره . وما إن بلغت هذه الأنباء مسامع العالم الأوروبى الأمريكى حتى أصدر التحذير بعد التحذير، مهددا بالمقاطعة وما وراءها. وفى الغيب ما يكشف عنه المستقبل. وذلك خرق للديمقراطية النمسوية والغربية لا يمكن ستره.

وإذا عنينا بالفواصل الفواصل الاقتصادية تذكر المؤرخون منا وقراء التواريخ، وقائع كثيرة وحروبا قصيرة وطويلة شبت بسببها . بل يذهب كثير من المفكرين إلى أن الاقتصاد وراء كل الحروب والمنازعات . وفى هذه السنوات توضع الاتفاقات الدولية واحدة بعد أخرى ، لإزالة الفواصل الاقتصادية ، وفتح أسواق الدول أمام المنتجات الأجنبية دون موانع أو معوقات .

وإذا عنينا بالفواصل الفواصل الاجتماعية والثقافية برز أمامنا اتفاقات الجات وما سمى بحقوق الإنسان، وإعطاء بعض الدول القادرة حق الحفاظ عليها فى داخل كل دولة، مهما كان مدى الاختلاف بين النمط المحلى والنمط الذى يُصوَّر على أنه عالمى .

ولما كان هذا المجال هو الذى أستطيع الحديث عنه، فإننى أقف عنده بعض الوقت. فالكرة الأرضية تضم عدة ثقافات جديرة كل الجدارة بأن توصف بالدولية أو العالمية، أريد بذلك أنها لا تنحصر فى دولة مجاورة لها، مثل الثقافتين البوذية والكونفوشيوسية اللتين تهيمنان على الشرق الأقصى، والثقافة الإسلامية التى تهيمن على قلب العالم،والثقافة المسيحية الأرثوذكسية التى تهيمن على روسيا واليونان وما جاورهما وتنتشر انتشارا واسعا فى مصر والسودان وإثيوبيا وغيرها، إضافة إلى الثقافة المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتية التى تهيمن على بقية العالم .

وأهلا وسهلا بكل ما يتصل بتبادل المعارف بيننا وبين هذه الثقافات جميعا.

أهلا وسهلا بإتاحة كل الفرص للإطلال على جميع الثقافات، لا أقول الثقافات العالمية التى ذكرتها ، بل والثقافات القطرية والمحلية ، التى تصعب الإشارة إليها واحدة واحدة ، وللتفاعل الطوعى معها.

ولكن النظرة السريعة إلى اتفاقات العولمة وشروطها والوقائع التى فرضتها أو أرادت ذاك تؤدى إلى اليقين بأن العولمة – فى الحقيقة – إنما هى هيمنة التصور الغربى للثقافة على بقية أرجاء الدنيا. وإن شئنا الدقة قلنا تصور المتحدثين بالإنجليزية ، وإن شئنا مزيدا من الدقة قلنا التصور الأمريكى.

يتمثل ذلك أوضح التمثل فى اتفاقية حقوق الإنسان. فهى تنادى بحقوق الإنسان الفرد. وتتغاضى عن حقوق الجماعات التى تعيش بينها، وأقربها إلى الذهن عائلته التى أعاشته، فإنها تحرمها حق التوجيه والضبط. وقيام المجتمع الأمريكى على الفرد أمر لا يحتاج إلى تصريح أو تدليل.

ورافق هذا الاتجاه العالمى ثورة فى وسائل المعلومات والاتصال ، ربما كانت أحد أسبابه أو أحد عوامل انتشاره السريع ، وقد اعتمدت هذه الثورة على تطور سريع تكنولوجى إلكترونى.. إلخ ، أنتج أجهزة غاية فى التعقيد.

ولما كانت هذه الثورة قد بزغت تحت مظلة اللغات المنتمية إلى الخطين اللاتينى والإغريقى ، فقد صُنعت أجهزتها بحيث تناسبهما. ولما كنا أصحاب خط مختلف احتاج الأمر إلى تعديل فى الأجهزة وفى الخط العربى ، ليتاح لنا الاستفادة منها، والحصول على المزايا التى تتيحها.

ومن ثم أعتقد أننا - نحن العرب - يجب أن نحسن مواجهة الواقع الجديد كى نلحق بركب التطور العالمى الشامل والغالب والسريع. يجب أن تكون لدينا الرغبة والجرأة والتخطيط.

أولا يجب أن يكون لدينا الوعى بذاتنا، وعناصر هذه الذات من ثقافة ولغة: ثقافة تحتضن كنوزا من القيم والفنون، ولغة تحتضن كنوزا من فنون الأدب وأنواع العلم. يجب أن يكون المفكرون منا على وعى دقيق بأهمية الثقافة واللغة، فى بقاء الشعوب، وحثها على الصراع من أجل الازدهار والتقدم.

لست أنا - ولا نحن - المثقفين العرب - الذين يرفعون قدر الأدب والعلم واللغة عندنا، من باب الزهو الكاذب ولكن فعل ذلك كل من اشتغل بها فى موضوعية ، وعبر عنها فى صراحة.

ولذلك فهى تدعونا إلى ألا نفرط فيها، بل فى كياننا.

إن من يعطون شركاتهم ومحلاتهم عناوين أجنبية غير مستلهمة من تراثنا الوطنى أو القومى،

ومن يتراسلون معا منا باللغة الإنجليزية فى معاملاتهم،

ومن يكتفون بالتراسل مع الأجانب بالإنجليزية دون إصحابها بنص عربى كما تستلزم الدواعى الوطنية، وكما تفعل الأمم الواعية،

ومن يشوهون أسماءهم العربية لتكون ذات مسحة أجنبية، فيصير عمودى أمودى، ورقية روكيه،

ومن يشوهون تراكيبنا اللغوية أو يقبلون بها، ليقال النيل هيلتون، والجيزة شيراتون،وما شابه ،

ومن يسخرون من المحافظين على سلامة العربية دون تشدق أو تقعر يكفى أن نبى الفصاحة كرههما،

ومن يسخرون من الحاكم الذى يضع قوانين للحفاظ على اللغة العربية، كما فعل بعض الصحافيين المصريين منذ سنوات،

ومن تحرّف صوت بعض الحروف من المذيعات ، ظنا منها بأن ذلك يجعلها من المتحضرات.

وفى عبارة واحدة كل من لا يقدس - وأقول يقدس - لغته وثقافته إما جاهل بذاته وما تفرضه عليه أو جاهل بما نملك من كنوز رائعة، يواريها أو يحط من قدرها حاضرنا المهيض لا حقيقتها الرائعة.

ولا يعنى هذا أن نقنع بما لدينا مبهورين مفاخرين، وإنما يعنى أن يدفعنا إلى أن نكون أبناءه، أبناءه الذين يعيشون فى القرن الحادى والعشرين، يستهلمون هذا القرن ما لا يكفر بالتراث ويضعهم فى مواكب النور.

وإذا كنت قد جمعت بين اللغة والثقافة أو التراث فإننى لا أعنى بذلك أن أمرهما واحد، فالدفاع عن التراث - فى خلدى- أيسر كثيرا من الدفاع عن اللغة .

فإننى أعتقد أن أحدا واعيا منا لا يمارى فى أن تراثنا مثل تراث كل الأمم: يحتوى على التافه الساقط الذى أنتجته عصور الضعف، ويحتوى على ما كان صالحا لزمانه ولم يعد كذلك فى زماننا، ويحتوى على ما ينبو عنه الذوق المعاصر.

وعلى رغم كل هذا، لايمارى إلا الجاهلون والمتعصبون فى روعة هذا التراث، وامتلاك كثير من نماذجه وفنونه مقومات الخلود.

وإذن علينا أن نُعمل عين التمييز فى هذا التراث، ونسقط ما يحسن إسقاطه،ونرفع ما هو جدير بالرفع والبقاء والاستلهام.

أما اللغة العربية فإنها تواجه – فى هذا العصر – الهجوم :

ممن يفضلون عليها اللغة الإنجليزية التى يرونها لغة العلم والابتكار والتقدم، أو يرونها لغة التجارة العالمية أو الواسعة المدى،

وممن يرون أنها قاصرة عن ملاحقة التقدم العلمى،

وممن يرون أن قواعدها كثيرة ومعقدة ومن العسير الإلمام بها والسير وفق أحكامها،

ومن يرون فى استخدامها تخلفا ، وفى استخدام اللغات الأخرى تحضرا.

والحق أن قواعد العربية ليست أكثر ولا أصعب من قواعد الفرنسية والألمانية مثلا.

والحق الذى لا شك فيه ولا جدال فيه أن اللغة هى الإنسان الناطق بها ، أى أن العربية هى نحن ، أو إن شئنا الدقة هى فكرنا، أى ما تحتوى عليه عقولنا من معارف. فإذا قصرت عن العلم الحديث فلأننا نحن المقصرون، وإن واكبته فلأننا واكبناه . فلا يمكن أن نتقدم نحن وتقصّر لغتنا، وأمامها أبواب الوضع والاشتقاق والتوسع والمجاز والتعريب والاستعارة.

الواجب إذن على مجامعنا اللغوية أن تسرع فى مواجهة كل كشف جديد، وأن تتفق فيما بينها على مصطلح واحد، وأن يكون لها حق فرض استعماله على الجميع.

والواجب أيضا على مدارسنا الابتدائية والإعدادية (المتوسطة) والثانوية أن تجعل الهدف من تعليم قواعد العربية القدرة على التعبير السليم كتابة وقولا.

فالعناية الآن تكاد تقتصر على تعليم التلميذ القواعد وتختبره فى حفظها. ولكنه يسقط سقوطا شنيعا عندما يستعملها. وما أظن أن رجال التربية فى العالم العربى يجهلون الطرق إلى بث هذه القدرة فى التلاميذ. وكثيرا ما تتهم الجامعات بالتقصير فى هذا الصدد، ويغفل من يفعل ذلك عن أنه ليس من شأن الجامعات، وإنما هو من شأن سنى الصبا المبكر.

وواجب على أجهزة الإعلام المتعددة أن تلتزم الصحة فى كل ما هو جدير بها ، لأن أثرها عظيم فى نشر الصواب أو الخطأ.

ويبقى أهم واجب وهو واجب علماء اللغة العربية ، الواجب الذى يجب أن يؤدوه لتعيش العربية معيشة القدرة والكفاءة فى عصر الأجهزة العلمية.

إن بعض العلماء يظنون أن فصحى الأمس يجب أن تكون فصحى اليوم. وهذا ظن بعيد كل البعد عن الصواب، يهملون قرونا من الاستعمال الحى للغة، ذلك الاستعمال الذى يجرى من التغيير المحسوس وغير المحسوس، وربما كان أقرب ما أجرت من تغيير التخفف من بعض الأمور، والميل إلى بسط القياس على كل شيء، وإهمال الشواذ.

فإذا نظرنا إلى الخط وجدنا المحدثين يحافظون على الألف الوسطى التى كان يهملها القدماء، عادة، فيكتبون هارون وإسحاق وأمثالهما بالألف، ووجدنا كثيرا منها يأتى بالواو المحذوفة من داود، أى أنهم مالوا إلى أن تمثل الكتابة النطق. وهذا حق، يجب أن يراعيه العلماء، ويطبقوه فى كل الأحيان. ويجب أن يهملوا الاعتبارات التى أدت إلى مخالفة الخط للنطق، مثل:

الرغبة فى التفريق بين المنتهى بواو أصلية والفعل المسند إلى واو الجماعة، الذى أضافوا إليه ألفا لا يُنْطق، على رغم أن السياق وحده يكفى فى التمييز فى كل الحالات .

الرغبة فى التفرقة بين الألف التى أصلها واو فى الثلاثى فتكتب ألفا مثل غزا، والألف التى أصلها ياء ، فتكتب ياء مثل رمى، على الرغم أن نطق الحرفين واحد .

الرغبة فى التفرقة بين عُمَر وعَمْرو، بزيادة واو غير منطوقة على الأخير.

الرغبة فى التفرقة بين فئة ومائة، لتشابههما الكبير فى الخط القديم غير المنقوط، مما أدى إلى أن يمد كثيرون فتحة مئة.

وأمثال ذلك كثير، بل هناك كلمات يخالف النطق الرسم دون اعتبارات معروفة .

والمفردات التى مات بعضها أو كاد . ويكفى أن أشير إلى بعض الكلمات القرآنية. التى كان المتوقع أن يتسع انتشارها لوجودها فى القرآن المرتل فى كل آن، ولكن ذلك لم يقدر لها. وأمثل بها بضيزى بمعنى ظالمة، وكِفات الموجودة فى قوله تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) ومعناها الأرض التى يضم فيها الشىء ويقبض ، إذا صح ذلك فى الألفاظ القرآنية، فهو أكثر صحة فى غيرها من الألفاظ.

وطبيعى أن يتغير مدلول كثير من الألفاظ،مثل كلمتى غزو وفضاء فى قولنا غزو الفضاء.

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى بعض التراكيب. فمال الإنسان الحديث إلى التبسيط والتعميم والاحتكام إلى القواعد العامة وتجنب الشذوذ. فالمتكلم الحديث إذا أراد أن ينطق بمثل قوله تعالى: (يوم يأتى بعض آيات ربك، لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أضاف ما فقال: ما لم تكن آمنت من قبل. وأمثال هذا كثيرة ..

أضيف إلى ذلك أن هناك أنماطا من القول مصطنعة. فقد قامت إحدى تلميذاتى بدراسة التنازع والاشتغال، واستخرجت من كتب النحو القديمة

الأنماط التى أعلنها النحويون. ثم بحثت عن هذه الأنماط فى عدد من السور القرآنية والنصوص الأدبية القديمة والحديثة نثرا وشعرا، فاكتشفت أن كثيرا من هذه الأنماط لم ترد فى الإستعمال. والواجب على النحاة أن يطرحوها من كتبهم.

بل أقول إن الطرح يجب أن يشمل أبوابا نحوية كاملة عدل عنها الاستعمال الحديث أو كاد. ونجعل من الاستعمال معيارا للعناية والإهمال، لأن القواعد اللغوية إنما توضع للتوظيف لا للمعرفة .

ويجب أن يخلو النحو من آثار نظرية العامل التى عدلنا عنها . وإلا كيف يصدق التلميذ أن السماء فى قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) ليست مبتدأ، وأنها فاعل لفعل محذوف، وأن أصل القول: إذا انفطرت السماء انفطرت.

بل لماذا يعنّى النحويون التلاميذ بجواز التقديم والتأخير فى كل باب من أبواب النحو أو عدم جوازها، ولا يطلقونها قاعدة عامة: بما أن العربية لغة إعرابية يجوز للأديب أن يقدم بعض الكلمات أو يؤخرها لأسباب خاصة به، شريطة الاحتفاظ بموقعها الإعرابى.

ولماذا يعنُّونهم بالتقسيم إلى جمع مذكر سالم وملحق به، وجمع مؤنث سالم وملحق به، ويكثرون من اختبارهم فى الفروق بينهما، ولا توضع قاعدة تجمع الفئتين ، وذلك أمر يسير.

إن العولمة وما توجده من ظروف جديدة تثير أمام العربية تحديات تحتم على أبنائها أن يتسلحوا بالوعى الداعى إلى الحفاظ عليها، والجرأة على وضع المعايير السليمة لقبول أو رفض قواعد الخط والنحو، والسعى الدائب إلى إيجاد الطرق التى تؤدى إلى بث القدرة فى التلاميذ على التعبير السليم .

محتويات الكتاب

كلمة	١
التنبه إلى تأثير البيئة	٣
اللغة العربية والعلوم الحديثة	٤٥
دراسة فى كتاب العين	٦٧
فائت تاج العروس	٨٣
وسائل الإعلام واللغة	٩٧
لغتنا العربية	١٠١
تيسير اللغة	١٠٥
اللغة العربية فى عصر العولمة	١٠٩